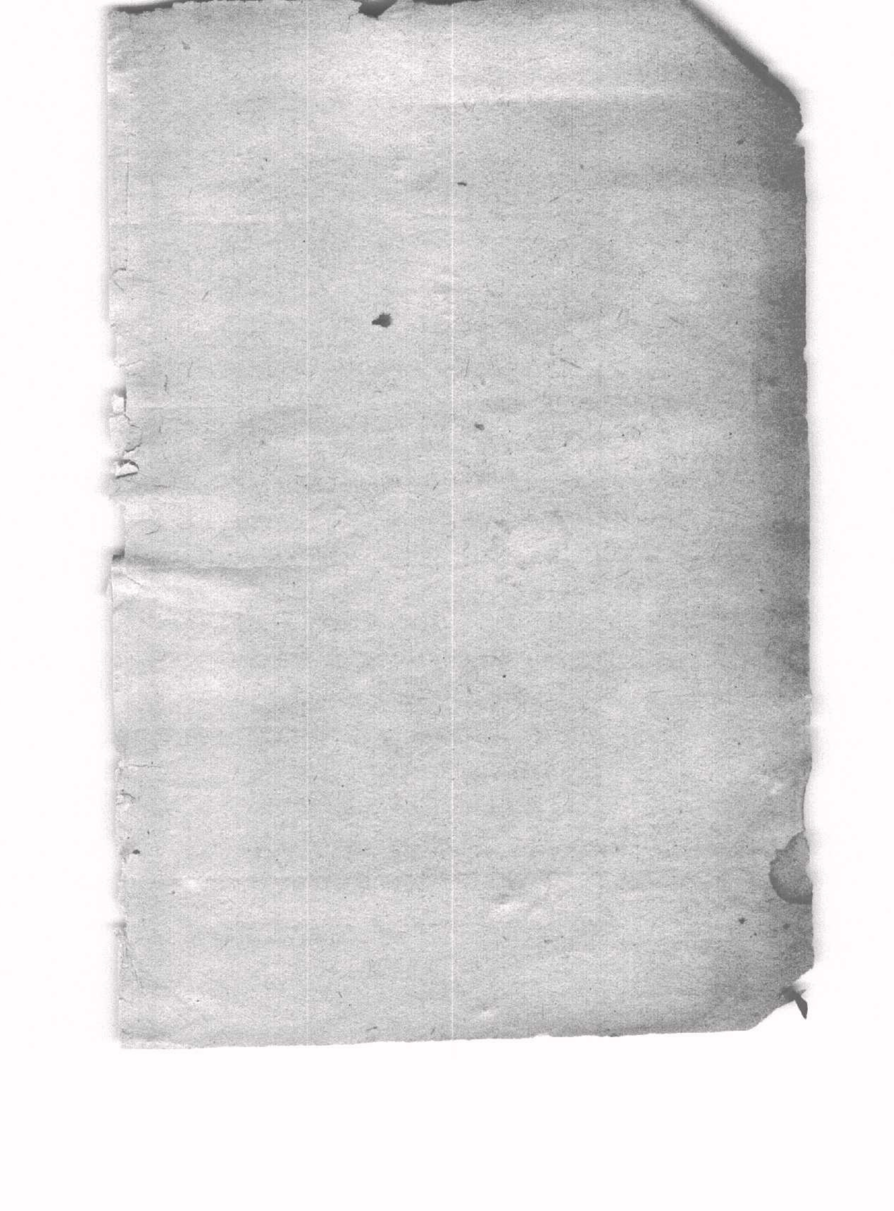
كتب ثقافية
الكتاب ٣٨

الزهاوى

شاعر الحرية

١٨٦٣ - ١٩٣٦

بقلم
انور الجندى



تصــــدير

منذ ربع قرن خلف جميل صدقي الزهاوي دنيـانا • وقد جاوز السبعين فما ذكره خلال هذا التاريخ الطويل الذي اوشك أن يكمل ربع قرن من الزمان ذاكرا الا بضع محاضرات القيت في معهد من المعاهد العالية وفصل أو فصلين في مجلة هنـا أو هناك • واذا كان الزهاوي قد لقي الاغضـاء من الرجعيين أو الجامدين فلماذا نسيه المجددون وحملة الوية الفكر الحـر الناهض • واذا كان ابناء عصره وجيـله قد غضوا من قدره فما باله اليوم وقد ظهر جيل جديد في العـالم العربي يؤمن بتقدير الاحرار من رجال الفـكر وحملة المشـاعل في طريق التجديد والبعث • هؤلاء الاحرار الذين اذا ذكروا كان جميل صدقي الزهاوي ـ بلا مجاملة أو مبالغة ـ من أوائلهم وروادهم فهو شاعر الحرية الذي احتمل في سبيل دعوته عنتا شـديدا وهجوما عنيفا • وهجاءا قاسيا • واذا ذكر شـعراء عصره في مجال التجديد والجـراة والاندفاع نحو اهـداف الحرية والتجديد ، لم نجد من يستطيع أن يسـبقه أو يلحقه أو يقف في صفه •• فقد كان شعرائنا في مصر وسوريا ولبنان والعراق ـ في الاغلب ـ مجاملون يسيرون في ركب الامـراء محافظون متئدون يقفون في الوسط في معترك التجديد والتقليـد ••

ولايمكن أن يكون شوقي أو حافظ أو مطران أو الكاظمي أو الرصافي قد طالب بحرية الكلمة أو اندفع في جراة الزهاوي ليطالب بتحرير المرأة أو تنقية العقيدة أو تحطيم الاصنام أو الدعوة للقومية العربية أو مهاجمة الخلافة العثمانية أو الحكومة الفاسدة أو طغيان الامراء أو استبداد الملوك أو اجرام المستعمرين ٠

ومع هذا فقد لقي جميل صدقي الزهاوي بعد موته نفس الهوان الذي لقيه في حياته فلم يذكره الا القليلون ولم يكتب عنه بعض ما كتب عن شوقي أو الرصافي أو مطران ٠

وعندما أخذت أدرس حياته بحثت عنه في مطبوعات دور النشر الكبرى فلم أجد عنه في أبواب الاعلام دراسة ولا في باب الشعر ديوانا ٠٠ ولا في أبحاث الادب رسالة ٠٠ ولولا فصول منثورة كتبت في الهلال والكتاب والرسالة وفي مؤلفات الريحاني وروفائيل بطي وشوقي ضيف ولويس شنجو وأنيس المقدسي والزيات ٠٠ لكان من العسير أن يجد المؤرخ ما يضيء أمامه الطريق لحياة هذا الشاعر العملاق الذي كنا نصافح شعره سنوات ١٩٣٢ وما بعدها في الرسالة فنرى ذلك الوهج القوي اللافح في جراته وحرارته وايمانه ٠٠ وهو في ذلك الزمن لم يكن الا في شيخوخته ٠٠ كان في السنوات الاخيرة من عمره المديد ٠٠ وقد هدته الامراض ٠٠ ومع ذلك فقد كان حيا دافقا يملأ النفس ٠٠ ويذكر بعظمة المتنبي

والمعرى مختلطة ممتزجة .. الاول فى كبريائه واعتداده والثانى فى شكوكه وتجرده ..

ولقد كان من الطبيعى أن يجىء اليوم الذى يثير الزهاوى ثورة جديدة فى الشعر العربى والفكر العربى وان بدت أهدافه ومعانيه ورؤاه اليوم وقد تحققت الا انه مايزال رمزا على معنى الجرأة والقوة والحيوية الدافقة .. انه سيظل منارا فى الفكر العربى يهدى الى غاية جديدة لم يكن يعرفها الشعر العربى من قبل وان يكن مطران قد جدد القـــوافى فان الزهاوى قد جدد المعانى وأعطى الشعر معناه الحق فى الكلمة الخـالدة « ديوان العرب ».

عصر الزهاوى

عاش الزهاوى سبعين عاما من عمر العراق والامة العربية فى فترة من أخطر فترات هـذا الشرق ٠٠ هى مرحلة التوثب والصراع والانتقال من اسـتبداد تركيـا العثمانية الى ظلم الاستعمار البريطانى ٠٠ عاش هذه الفترة الضخمة يقظ القلب حى الوجدان ٠٠ متأثرا بالاحداث ٠٠ مسجلا لها ٠٠ ولم يقف عند هذا شأن الشعراء ٠٠ ولكنه كان صـادقا يدعو قومه الى كل جديد ، لا يمل الحداء ولا النداء ولا الدعـوة مهما أغضب الناس ومهما أغضبه الناس ٠٠ انه ذلك الداعى العنيد الذى يتلقف كل جديد من الرأى فينقله شعرا ويدعو اليه العـراق والعرب ٠

وقد شب الزهاوى عن الطوق إبان الاحتـلال البريطانى لمصر وهزيمة عرابى ٠٠ فى نفس الوقت الذى كان العـراق يرزح تحت سلطان طاغ هو سلطان العثمانيين ، الذين يكرهون العرب ويسومون جزءا كبيرا من الامة العربية استبدادا مرهقا عاصفا ٠ وكان عبد الحميد اذ ذاك يقبض بحفنة من الجواسيس على رقاب العباد ويحصى عليهم أنفاسهم ٠

وسرعان ما تخلف الزهاوى مدائحه للسلطان ، عندما بدت معالم دعوة أحرار تركيا الى مقاومة اسـتبداد عبد الحميد ،

وراح يمطره وابلا من شعره المرير داعيا الى التحرر .. ثم تطور التاريخ واعلن الدستور العثماني وانتصر رجال ترييه الفتاة وهنا نرى الزهاوي في مقدمه الركب فرحا مبتهجا .. محبا للحرية ومحبا للعراق ومتطلعا الى فجر جديد في حياة الامة العربية ثم لاتلبث الدعوة الى القومية العربية أن تعلن حتى يشارك فيها ويهاجم أحمد جمال السفاح الوالي التركي على سوريا بعد أن علق على المشانق الابرار الشهداء من صفوة الرعيل الاول للدعوة الى انفصال العرب عن الترك ومقاومة الحملة المغرضة لتتريك العرب باسم « الجامعة الطورانية »

فاذا بدأ العراق يدخل في عهد جديد بعد ثورة دامية نرى الزهاوي يدعو الى الدستور والبرلمان والشورى وحرية الصحافة والاستقلال وتحرير المرأة .. ويتقدم موكب الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي ويشارك فيه مشاركة فعالة .

وهو في هذه المرحلة الطويلة يهدر بالشعر قويا حيا ذاخرا بالانتفاضات ، فيه صورة ذلك القلب الذي يتحرق الى حرية قومه من أصر الاستبداد والاستعمار والخرافات والاوهام والجمود .

وهو طوال هذا الزمن ينافح عن دعوة الحرية والتجديد في قوة .. ويكرر ما يقول أحيانا .. ويندفع في حماسة بالغة .. وقد يكبو .. وقد يخطىء .. ولكنه لا يتوقف أبدا ولا يصمت أبدا .

وقد يكون شعره نظما .. وقد يكون أقل جودة من شعراء عصره ولكنه يتفوق عليهم جميعا في أنه يحمل مضمونه معاني

قوية ٠٠ وآراء جديدة ٠٠ وحركة دائبـــة ٠٠ وانه يدعـو ولا يمل الدعاء الى الحـــــرية ٠٠ ويصرخ ولا يمل الصراخ مدافعا عن الجديد ٠٠٠ وينادى ولا يتوقف عن المنـــاداة باسم العراق الحبيب الى نفسه ونفوس العرب جميعا ٠ وقد عاش هذا الزمن كله طوال أيامه عابسا متشـائما شـاكيا ساخطا مسرفا فى العبوس والتشـــاؤم ٠٠ غير متوقف عن الشكوى والسخط ذلك ان نفسه الكبيرة وحبه للعراق وايمانه بالحرية وتطلعه الى فجر مشرق يرى فيه العرب وقد أصبحوا فى مقدمة الركب ٠ كل هذا كان يشعره بأن التطور بطىء وان التقدم وآن ٠٠ وان ما يتطلع اليه منأمل مايزال بعيدا ٠ أضف الى هذا أنه كان يحس بعد أن ارتفع به السن انه لم ينصف فى قومه ولم يكرم فى وطنه ٠٠ ولم يأخذ مكانه الحق ٠٠ وان حملات النقد العاصف وكلمات الهجاء المرير كانت تنتاشه من هنا أو من هناك ٠ ونسى انه لم يكن شاعرا يغرد فيجتمع حوله الناس ليصفقون له ، وانما كان داعية يحطم قديما باليـا ٠٠ ويمزق تقاليدا تعارف عليها الناس بالحق أو بالباطل طويلا ٠ وانه كان يدعو الى جديد تنظر الجماهير اليه فى خوف وقلق واشفاق ، وان من شأن من يتصدى لهذا أن لا يجد من عامة أهل جيله الا المعارضة والخصومة ٠٠ وقد كان يسـتطيع أن يدع هذا وأن يعيش مادحا ومغردا وسائرا فى كل ركب ، عندئذ كان يجد من عامة الناس الرضى والاعجاب والتصفيق ، أما وقد اختار لنفسه الدعوة الى الحرية والخلاص من أسر التقليد ٠٠

واغلال القديم ٠٠ وقيود الجمود ٠٠ فلم يكن من المتـوقع أبدا أن يواجه الا بمثل ما ووجه به على أن الزهاوى يقـر الان فى قبره راضيا حين يرى أن دعوته دفعت العرب جميعا الى الفجر الصادق ٠٠ فبدت علامات الحرية الحقة ترتسم فى الافق ٠٠ والاوطان تخلص من المستعمر ، والمجتمع يتقدم ، والمرأة تأخذ حقها فى العلم والسفور والعمل فتشترك فى كبريات الاعمال وتدخل البرلمان وان علامات الجمـود والتقليد والبـــدع فى محيط الدين قد تراجعت وحل محلها اجتهاد وتحرر وعودة الى المنابع الصافية للعقيدة ٠

وليس شك أن صيحة الزهاوى وثورته المتصلة ودعــوته التى امتدت خلال حياته أكثر من أربعين عاما كان لها أثرها فى التطور ٠٠ ومكانها فى تاريخ حركات البعث والتحرر ٠

مطلع الشـــباب

ولد الزهاوى (١) فى يوم الاربعاء ١٨ من شـــهر يونيـو (حزيران) عام ١٨٦٣ فى بغداد وكان والـده محـــمد فيضى الزهاوى مفتى العراق ٠٠ وأخوه فقيه من فقهائها ٠٠ ويرجع نسبه الى أمراء السليمانية الذين يرجعون الى خالد بن الوليد وترجع شهرته بالزهاوى الى أن جده هاجر الى «زهـاو» من أعمال ايران فأقام فيها ٠ وتزوج منها بسيدة زهاوية ٠

أما أم المترجم له فسيدة من أسرة عريقة فى المجـــد غير انها كانت عصبية المزاج ولا تذعن لرأى أحد (٢)

ومن هنا تتكشف لنا حقيقتان : الاولى انه نشأ فى محيط الفقه والدين وكان والده وأخوه يريدانه صاحب فقه وقضاء ٠ فاندفع خارج هذا المحيط بل لم يلبث أن هاجم هـذا المحيط بثورة على الفقهاء ورجال الدين وهذا اتجاه طبيعى بالنســبة للزهاوى العنيد من ناحية وبالنسبة لرغبتـــه فى التبريز عن

١ ـ زهاوى زاده جميل صدقى افندى كما ورد اسمه فى الكتب القديمة

٢ ـ من رسائل الزهاوى الى أحمد محمد عبيش ٠ ملحق السياسة الاسبوعية ٧ يناير ١٩٣٢

طريق مخالف لطريق أبيه وأخيه والاخـرى ٠٠ ان أمه كانت عصبية المزاج ولا تذعن لرأى أحد ٠ وقد ورث الزهاوى منهـا هذا الطبع وعرف به ٠

يقول الزيات : كان أهله يريدونه صاحب قضـــاء وفقه ، ولكن عناده دفعه أن يديم النـظر فى الاداب ٠٠ ثم بدأ ينظم الشعر فكان صاحب دعوة وفلسفة وان الاستعداد الموهوب فى الطبع وهو مشيئة الخالق فى الخلق ٠ جعل من الزهـــاوى أبا العلاء وقد كان أهله يريدونه أبا حنيفة ٠

ويرد بعض المؤرخين جرأة الزهاوى الى عرق الغم والخال من الكرديه ٠

وقد تعلم الزهاوى تعليما دينيا ٠٠ فقد ذهب الى الكتاب فى سن الخامسة ومكث فيه لبضع سنوات بليـــدا لا يتقدم ولا يهتم بغير اللعب ونظم الاشطر الفارغة من المعانى ٠

وكان كثير الحركة محبا للعب أكثر من اخوته وأترابه ٠٠ متمردا لا يذعن لرأى ٠٠ يقول الزهاوى فى رسالته (١): كنت فى صباى أدعى بالمجنون لحركاتى غير المألوفة ٠٠ وفى شبابى بالطائش لخفتى وايغالى فى اللهو ٠ وفى كهـــولتى بالجرىء لمقاومتى للاستبداد ٠ وفى شـــيخوختى بالزنديق لمجاهرتى بارائى الحرة الفلسفية ٠

وقد تعلم كثيرا من علوم الاولين فلم يشبع عقله ٠ واستطاع أن يقرأ كثيرا مما ترجم الى العربية على أساتذة مختصين ٠

(١) رسائل الزهاوى ٠ مجلة الكاتب المصرى يناير ١٩٤٧

ثم قرأ عن الفارسية والتركية بعد أن أجادهما ومعنى هذا أن علامات الثورة ولدت مع جميل وأن روح التمرد وعدم الاذعان لاحد .. كانت من أول ملامح صباه وقد ظلت هذه العوامل تتفاعل فى نفسه طوال حياته .

ولعل أمرا آخر كان له أثره فى تكوين طبيعة الزهاوى وشخصيته : يقول الزهاوى (١) كانت والدتى تعيش مع أولادها فى بيت منعزل عن بيت والدى فنزعنى والدى من أحضانها دون اخوتى واخوانى .. وأخذ على عاتقه تربيتى تربية خاصة متبعا هواه . وكان من هواه الادب .. وكان شاعرا فى الفارسية والعربية معا غير أنه مقل فيهما .

ولعل هذا الحادث له أثره فى نفسية الزهاوى .. فان انتزاعه من أمه دون اخوته لابد أن ترك فى نفسه احساسا بالالم والضيق أضيف الى عوامل نفسه فزادها ثورة وقلقا واضطرابا

ثم ابتلى جميل فى الخامسة والعشرين من عمره بداء النخاع الشوكى الذى لازمه بقية حياته ولم يلبث بعد ذلك أن أصيب بالشلل فى رجله .

ويقول أحمد محمد عيسى (٢) ان جميل حفظ جزء «عم» بعد ثلاث سنوات .. ثم قرأ جميع أجزاء القرآن وحفظ منها ما استطاع وتفتح ذهنه شيئا فشيئا .. وقرأ على بعض العلماء مبادىء الصرف والنحو والمنطق .. وقليلا من البلاغة .. ولما

(١) رسائل الزهاوى . مجلة الكاتب المصرى يناير ١٩٤٧

(٢) السياسة الاسبوعية ــ ٧ يناير ١٩٣٢

رأهم لا يشبعون جشعه ٠٠ ولا يروون غلته ٠٠ ولا يقنعونه بأجوبتهم على أسئلته العويصة عن الالوهية وما شاكلها رجع الى أبيه غضبان أسفا ٠٠ قائلا له :

هؤلاء شيوخ جامدون

قال والده : ويل لك يابنى أنت ومن على شـــاكلتك من الشيوخ الجامدين ٠٠

وهذه هى أول معالم الثورة ٠٠ ولابد أن ذلك كان فى سن العشرين أى عام (١٨٨٣) وهذا التاريخ عندما بدأ حيـــاة الزهاوى الادبية وعلامة الطريق الطويل الشاق الذى قطعـه محملا بوراثياته وعوامل بيئته ٠

ولقد كان والده يشفق عليه من ثورته ونزعته الجريئة الى التمرد ٠ ويروى انه استدعى ابنه اليه فى ليلة من ليـــالى الشتاء الباردة ٠٠ كان قد أهداه عباءة جميلة ٠٠ وقال :

ـ ألبس ٠٠ ياجميل عباءتك فأنى أخاف عليك البرد

ورد جميل على طريقته المتمردة الجريئة :

ـ يا أبى انى لابس الغرفة فمن أين يتسرب البرد الى ٠

وصمت والده ولم يزد على أن نظر اليه فرأى بريق الذكاء الحاد ينفذ من عينيه الواسعتين وقد رفع رأســه الكبير فى زهو وثقة ٠٠

وقد قسم جميل شبابه بين اللعب والقراءة ٠٠ كان يلعب بالكعاب ثم بالحمام القلاب فيطيره أسرابا فى الهـــواء ٠ كما أولع بركوب الخيل فكان يسابق ويسبق كما أحب لعبة الداما

وقد ألف في هذه الألعاب رســـائل نشرها في المقتطف والهلال ٠

ومن ناحية أخرى أكب على قراءة المتنبى وتفسير البيضاوى وغيرها من المؤلفات الضخمة التى كانت تحفل بها مكتبة أبيه

وقال الزهاوى فى بعض كتاباته (١) طالعت فى شـــبابى مؤلفات الدكتور فانديك المطبوعة فى بيروت وكتابى أصـــول التشريح والفسيلوجيا لورتبات ٠ وبضعة مجلدات من المقتطف كانت قد نشرت يومئذ فحصل لى بسبب هذه الكتب الاطلاع على أساسات العلوم العصرية ، ثم توسعت فى هذه العلوم فى كهولتى بمطالعة كتب مترجمة الى التركية ٠ وأكثرت من قراءة الروايات يومئذ من الفرنسية الى التركيـة ٠٠ فحصلت على شىء قليل من العـلم بعـــادات المجتمع الغربى وأفكاره منها البؤساء لهوجو فى مجلدين ضخمين ٠ ولم استغن حتى اليوم عن مطالعة الكتب المترجمة الى العربية أو التركية ٠

---

(١) الكتب التى أفادتنى مجلة الهلال ــ ١٩٢٧

حيـاته

من الاعلام من تكون حياتهم خطا واحدا مستقيما لا أحداث فيه ولا تقلبات ومنهم من تضطرم حياته بالاحداث صـاعدة هابطة ٠ دافعة مندفعة ٠ هادرة لا تتوقف ولا تسـكن ٠ ومن هؤلاء جميل صدقى الزهاوى فقد كانت حياته الطويلة حافلة متحركة وهى الى ذلك خصبة غنية فيها الجديد دائما وفيهـا الصراع والارتطام والاختصام لا يتوقف ولا يهدأ ولا يلين ٠

والزهاوى منذ اليوم الاول حتى اليـوم الاخير هو : الثائر المتمرد الجرىء الذى يعارك ويخلق ميادين المعـركة ويواجه الناس بالجديد والغريب مما يغيظ ويثير ٠

قلمه هو متنفس حياته ٠٠ ونافذة روحه ٠٠

ولقد ذهب الزهاوى شمالا وغربا وشرقا ٠٠ وعمل فى أكثر من عمل ٠ وهو بطبيعته القلقة لا يقـر ولا يتـوقف ٠ وانما يتحرك ويتحرك دائما ٠٠ عينته الحـكومة التركية فى أول شبابه عضوا فى مجلس المعارف ببغداد ثم مديرا لمطبعة الولاية ومحررا للقسم العربى من الجريدة الرسمية «الزوراء» ثم عضوا فى محكمة الاستئناف ثم عين عضوا فى مجلس المبعوثان عن بغداد ولما أعلن الدستور عين أستاذا للفلسفة فى المكتب الملكى بالاستانة ثم مدرسا للاداب العربية فى دار الفنون ثم عاد الى

بغداد فعين أستاذا للشريعة فى كلية الحقوق ثم نائبـــا فى مجلس الشيوخ العراقى ·

وفى خلال ذلك سافر الى مصر وسوريا وذهب الى اليمن بارداة سلطانية « واعظا عاما » وعضوا فى الجمعية الاصلاحية وبقى فيها تسعة أشهر ·

وهاجر الى سوريا ومصر · وأقام بالشام وبيروت فترة ثم عاد الى العراق

هذه ملامح الصورة العامة لحياته العملية ولكنها تحـوى أغوارا بعيدة المدى فانه لم ينس خلال حياته هذه شعره ولا أدبه كان ينشر فى المجلات والصحف فى مصر وبيروت والشـــام وبغداد مقالات كثيرة وقصائد ثائرة أيام الاستبداد الحميدى بامضاء مستعارة ·

وعندما سافر الى استانبول اجتمع بالاتراك الاحرار وجهر بالسخط على نظام الحـكم القـــائم اذ ذاك · ونظم عددا من القصائد نشرت فى المؤيد· وعاش تتعقبه الجواسيس· وكانت النهاية أن سجن وحمل مقيدا الى بغداد ·

يقول الزيات (١) : رأى فى الاستانة عبد الحمـــيد يلقى الاحرار مغلولين فى غيابة السجن أو فى قاع البحر فأرسـل اليه مع أبى الهدى قصيدة قال فيها :

---

(١) الرسالة مجلد ١٩٣٧

أيأمر ظل الله في أرضـــه
بما نهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مـــال وينفى مبرأ
ويسجن مظلـوما ويسبي ويقتل
تمهل قليلا لا تغظ أمـــة اذا
تحرك فيهـــا الغيظ لا يتمهـــل
وأيديك ان طالت فلا تغتر بهـــــا
فان يد الايام منهن أطـــول

فحبسه حينا ثم نفاه ..

وسمع وهو عضو في مجلس المبعوثان عن بغـــداد مقرر الميزانية يذكر في وزارة الحربية مبلغا جسيما من المال جعلوه لقراءة البخاري في الاسطول فقـال : أنا أفهم أن يكون هـذا المبلغ من وزارة الاوقاف .. أما الحربية فالمفهوم أن الاسطول يمشي بالبخار لا بالبخاري . فثار عليه المجلس وشغب عليـه العامة .

ولما دعاه الخليفة الى الاستانة ، أقض مضاجع الجاسوسية فانتقص أمره وساء مقامه .

ويروى الزهاوي في احدى رسائله الى أحمد محمد عيشى أحرج ساعات حياته يقول : ان أحرج ساعاتي هو يوم هـاج الشـعب العراقي على عام ١٩١٠ لمقـــالة شديدة نشرتها في « المؤيد » في الدفاع عن المرأة حتى اني قبعت في داري أسبوعا ولم أخرج منها خوف اغتيال الشعب المارد لي . وعزلني يومئذ والي بغداد ناظم باشا من وظيفتي في مدرسة الحقوق ببغداد

وقد تزوج الزهاوی فی سن الثلاثین بالانسة زکیة هانم وعمرها یومئذ ١٦ سنة وهی من بیت ترکی شریف ولم یولد لهما ولد وخدمته فی شیخوخته باخلاص وأمانة (١).

وقد عاش الزهاوی (٢) بالرغم من الامراض والشلل والنوبات العصبية ، ظل الى ما قبل وفاته بيوم واحد وقاد الذهن قوى الذاكرة . وكان يحب المرح والاطراء ويضيق بالنقد ذرعا .

ويصف الزيات الزهاوى . وقد عاش معه فى العراق أعوام ٣٠ و٣١ و١٩٣٢ وكان صديقه الوفى .. «لم تكد تلوح فى مخيلتى صورة الشاعر التى صورها السماع والقراءة حتى رأيت على باب البهو شيخا فى حدود الثمانين قد انخرع متنه وثقلت رجله ورعشت يده فهو لايحمل بعضه بعضا الا بجهد والزهاوى ديدنه أن يتكلم كالبلبل خاصته أن يغرد .. فهو فى مجلس الصداقة شاك أو شاكر . وفى مجلس الادب محاضر أو شاعر وفى مجلس الانس مفاكه أو محدث » .

كما صور الزيات منتداه بشارع الرشيد أو على ضفة دجلة وهو جالس على الدكة الخشبية ينشد الابيات الرائعة أو يرسل النكتة البارعة أو يروى الخبر الطريف فى بشاشة جذابة وقهقهة ساذجة .. ويده المرتعشة لا تنفك تعبث بسبحته الصغيرة أو تصعد وتهبط بسيكارته العراقية .

(١) رسائل الزهاوى : الكاتب المصرى . يناير ١٩٤٧

(٢) سليم طه التكرينى . مجلة الكتاب . يونيه ١٩٤٩

كما وصف مقره فى (الصابونجية) وكيف كان يحدثه أنه قضى الليل ساهرا يقرأ .. أو ذاهلا ينظم .. القصص والمجلات منتثرة على سريره وعلى مقعده .. المسـودات مدسوسة تحت مخداته أو فى ثيابه ..

يقول للزيات : أنظر كيف اذيب عمرى فى شعرى ، والامة تقذفنى بالبهتان .. والحكومة تخرجنى من مجلس الاعيان .. والملك يستكثر على أن أكون شاعر البلاط .

.. ثم لا يلبث أن يقول : سأذهب وستبقى أشعارى معبرة عن شعورى ناطقة بآلامى فهى دموع ذرفتها على الطرس وهى خليقة أن تبعث من عيون قارئى دمعة هى كل جزائى عن نظمها

شـــعره

اشتغل الزهاوى بالنثر والشعر ولكنه برز فى الشـــعر وعرف به وأطلق عليه لقب (الشـــاعر الفيلسوف) وقد بدأ حياته كاتبا ولكنه تفرغ للشعر بعد قليل واقتصر عليه · وان كانت محاولاته الاولى فى الشعر بدأت باكرة وســـاذجة ·· يقول الزيات : لم يعرف الشعر الا بعد أن علت به السن ·

ويقول فى رسائله الى محمد أحمد عبش (١) : ان والده كان شاعرا فى الفارسية والعربية معا وان كان مقلا فيهما ·· ومن شعره فى العربية قوله :

لا تدع فى حاجة بازا ولا أســـدا
الله ربـــك لا تشرك به أحدا

يريد بالباز عبد القادر الجيلى · وبالاسد عليا بن أبى طالب كما كان يلقبهما به الجمهور فى العراق ·

ويقول : وأتذكر أنه ــ أى والده ــ كان فى طفولتى يعدنى بدرهم اذا نظمت شطرا واحدا من الشعر موزونا · وان لم يكن له معنى · وقد كسبت الجائزة مرارا فكان فى ذلك جـــزل

---

(١) ٧ يناير ١٩٣٢ ــ السياسة الاسبوعية

والدى • أما جذلى أنا فكان فى الحلوى التى كنت اشتريها بذلك الدرهم •

وقد تناول الزهاوى فى شعره السياسة والاجتماع والغزل والعلم والفلسفة •

أصدر عدة دواوين : الكلم المنظوم بيروت ١٩٠٨ • ديوان الزهاوى : القاهرة ١٩٢٤ ، رباعيات الزهاوى : بيروت ١٩٣٣ اللباب : بغداد ١٩٢٨ ، الاوشال : بغداد ١٩٣٤ ، الثمالة : بغداد١٩٣٩ ، ترجمة رباعيات الخيام من الفارسية بغداد ١٩٢٨

وله ديوان نزعات الشيطان مجموعة من القصائد لم تنشر بعد فى المجلات والجرائد •

يقول الزهاوى : وسوف تنشر بعد موتى لانها تصادم آراء المتعصبين وتثيرهم على اثارة لا أحمد عقباها •

وقصيدة : ثورة فى الجحيم •• وعدد أبياتها ٤٣٣ بيتا ونشرت فى مجلة الدهور فى العام الماضى •• وكانت تصدر فى بيروت • يقول الزهاوى (١) وقد قامت حولها ضجة كبيرة • وقد سبنى بسببها بعض المتعصبين على المنابر فى خطبة الجمعة • ونفذت بعد قليل من الزمن نسخها •

يقول الزيات : نظم فى أعقاب عمره قصيدة « ثورة فى الجحيم » فلما كلمه الملك فيصل بشأنها قال : عجزت عن اضرام الثورة فى الارض فأضرمتها فى السماء •

وقال الزهاوى فى رسائله : أن أكثر شعرى الذى نظمته

(١) رسائل الزهاوى ديسمبر ١٩٤٦ الكاتب المصرى

قبل الدستور العثماني نشر في ديواني الاول الكلم المنظوم (١) كما كتب عليه هذه العبارة « نظمه ونشر أكثرها ابانها بامضاء رمزي في أشهر جرائد مصر يوم كان الاستبداد شديدا » .

وقد أوضح الزهاوي منهاجه الشعري في مقـدمة ديوان الزهاوي الذي صدر في القاهرة عام ١٩٢٤ : قال في مقتطفات من هذه المقدمة :

الشعر ما ينظمه الشاعر من احساس يجيش في نفسـه بأوزان موسيقية فيهز به المسامع .. ولا أرى للشعر قواعـد بل هو فوق القواعد .. ولا يتقيد بالسلاسل والاغـلال .. وهو أشبه بالاحياء في اتباعه سنة النشوء والارتقاء .. يتجدد بحسب الزمان ويرتقي من الادنى الى الاعـلى .. وأنزع أن أمشي بشعري في سبيل الحيـاة الطبيعية متجنبا المبالغات وما أخلق الشاعر بأن يخرق التقاليد التي ورثها الابنـاء عن الاباء فيقول ما يشعر به .. ولا يشعر به اباؤه .

ومازلت في جو من الفـكر طائرا

ومن عادتي أن لا أطير مع السرب

ولا أرى مانعا من تغيير القافية بعد كل بضعة أبيـات من القصيدة .. عند الانتقال من فصـل الى آخر .. كما فعلت

---

(١) طبع في المطبعة الاهلية ببيروت وآخر قصائده مؤرخة بغداد في ٧ أغسطس ١٩٣٢ م

فى عدة قصائد ، لا دفعا لملل السامع من سماع القافية الواحدة فى كل بيت .. بل اراحة للشاعر من كد الذهن لوجدانها. واجيز للشاعر أن ينظم على أى وزن شاء سواء كان من أوزان الخليل أو من غيرها. والشاعر الحر شجاع لا يهاب فى الصدق لومة اللائمين ، الا اذا أحس بالمهلكة فعندئذ يسكت أو يكذب. ونزاع الى التجديد . يثور على النظام . ويتمرد على السلطان الكاذب .. يريد كل يوم أن يمرق عن العـــادات . ويمزق أطمارها الباليه كالفراشة التى تخلع شرنقتها لتبرز فى ثوب أجمل محبر بألوان السماء .

٢ ـ الجديد .. الجديد .. هو أحسن ما تنزع اليه النفس الوثابة ولو لم يتجدد الليل والنهار لملهما النظر .

سئمت كل قديم عرفته فى حياتى

ان كان عندك شيء من الجديد فهات

ولا أريد بالتجدد أن يقلد الشاعر العربى شعراء الغرب فى شعورهم .. فان لكل أمة شعوراً خاصاً بها لا تحس به أمة أخرى .

لا أقول أن يجمد الشاعر العربى على ما هو عليه الشـــعر اليوم .. بل الاحجى أن يترقى شعر كل أمه فى سبيله

ولا يسوغ للشاعر العربى مخالفة قواعد اللغة . وللشاعر الفحل أن يولد فى اللغة اذا مست الحاجة كلمات لم يأت بها من جاء قبله .

٣ ـ وجدت الذين يمارسون الادب ثلاثة

* الاكثر عدداً من لايستحسن من الشعر الا ما ألفــه من

من القديم وانتقل اليه بالوراثة من العصــور الماضــية ..
والشعراء المسايرون للجمهور ينالون حظوة منهم

◆ المتشرب مخه من الادب الغربى لاينزع الى الشعر العربى الا على نسق مايقول شعراء الغرب . ومثل هذا قد خرج من نفسية قومه واندمج فى غيرهم .

◆ قليل يسير مع رقى العلم جنبا الى جنب . ويستحب الشعر خلوا من المبالغات منطبقا على الطبيعة مع المحافظة على الشعور العربى الذى هو قوام شخصيته . والاخلق الا ينتظر الذى له نزعة التجدد أن يكبر شعره الجمهور من جيله الا اذا كان الجمهور منحطا قد تعود القديم .. والشاعر الذى يساير شعور الناس فيما ينظم ينال اقبالهم على شعره مادام الشعب جامدا . أما اذا تقدم الشعب ، فان شعره يموت ويأخذ مكانه الشاعر الذى يتجدد مع جيله ..أ.هـ

وقوام رأى الزهاوى أن هدف الشعر عنده هو التجديد .. ودفع المشاعر الى الحرية الفكرية والاصلاح . وحمل الجماهير على الانتقال من الجمود الى الحياة .

وقد كان الزهاوى شاعرا له هدف ورسالة وغاية يحمل دعوة البعث فى حدود قوله : تمزيق العادات الباليــة دون أن يخشى غضب الجماهير أو هجائهم .. بل انه يرى أن الجمهور لا يكبر الشاعر المجدد الا بعد أن يموت ويأخذ مكانه بين الثرى يقول: (٢) غنيت لابناء وطنى لانى أريد ايقــاظهم .. فلما

(٢) مقدمة ديوان الزهاوى ١٩٢٤

فتحوا عيونهم شتموني ، ثم غنيت فأخذوا ينظرون الى شذرا ثم غنيت فابتسموا لي ثم هتفوا وبقي فيهم من يشتم ٠ وغنيت وسأغني الى أن يسكتني الموت ، وسوف تبقى كلماتي معبرة عن شعوري وما كابدته في حياتي من شقاء واضطهاد ، فهي دموع ذرفتها يراعتي على الطرس ناطقة بآلامي ٠٠ وهي خليقة بأن تذرف من عيون قارئها دمعة عن كل جزائي من نظمها ٠

ويرى الزهاوي أن شاعر الاجيال لا يموت شعره لانه يبنيه على الحقائق الخالدة ٠٠ وهو في الغالب يسبق جيله « ولا أراه مستفيدا من المستقبل الذي يجمع أهله على اكباره لانه يكون يومئذ تحت أطباق الثرى بينما لايسمع هتاف الهاتفين له »٠٠ والزهاوي في هذه العبارة يعني نفسه ٠ ويرى أنه قد سبق جيله وانه لم يلق الجزاء من أهل زمنه ٠ ولم يستهدف الزهاوي من شعره كسبا أو نفاقا قال :

شعري ما أردت أن أكسب به مالا ٠٠ أو اتزلف على احد٠ فما رثيت الا من كان صديقي ٠ ولا حمدت الا من ظننت فيه خيرا للبلاد ٠ وربما خاب ظني في بعضهم فكففت ٠

ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأن الزهاوي جرى مجرى القدماء في المدح والرثاء والهجاء ٠ وهو في هذا مجدد بالمعاني٠ مقلد بأساليب القدماء وأبواب القول عندهم ٠

ويصور الزيات الزهاوي الشاعر في قوله : كان فكرة أقوى من خياله وأسمى من عاطفته وهو من شعراء الفكرة له البصيرة النافذة ٠ وليس له الاذن التي (تموسق) الموسيقى ٠٠ ولا القريحة التي تصنع ٠٠ فاللفظ قد لا يختار ٠٠ والوزن قد

لايتسق والاسلوب قد لا ينسجم · ولكن الفكرة الحية لجريئة تعج بين الابواب المتخاذلة عجيج الامواج المزبدة بين الشواطيء المنهارة ·· ويرى الزيات أن الزهاوى عقلية أفاقه وحيوية دفاقة وطبيعة ساخرة ·· وهذا التوثب الحماسي هو الذي جعله يؤثر النظم في تقييد خواطره ·· وهذه الحماسة قد تنفك أحيانا عن الفكرة لكلالها أو ابتذالها ·· فيذهب الشاعر ولا يبقى الفيلسوف ·

ويقول الزهاوى فى بعض رسائله أن شاعريته بدأت وهو فى سن الخامسة عشرة ·· ومن أوائل شعره :

أما آن أن نأبى على الوطن العارا

فنركب أخطارا ونقضى أوطارا

وقد ترجم الزهاوى شعرا عن توماس هاردى ونشره فى الهلال عام ١٩٢٩ ··

وتعد قصيدة « ثورة فى الجحيم » من أهم شعر الزهاوى فهى مؤلفه من ٤٣٣ بيتا فى قافية واحدة نشرها عام ١٩٢٩ فأحدثت ضجة وقد ساير فيها (رسالة الغفران) وتأثر بها تأثرا واضحا فى الفكرة والمشاهد · كما تأثر بدانتى فى الكوميديا الالهية · وأخذ من (هوجو) العبارات التى ساقها على ألسنة الملاك الذى اتخذه رمز النبوءة ·· وخلاصة ملحمته أن الشاعر يموت ويودع فى القبر فيظهر منكر ونكير ملكا الحساب ·· فيجرى بينه وبينهما حوار حول العقيدة والحياة والدين والايمان وتفاصيل العبادات والفروض الدينية · وقد عرض لهذا كله فى سخرية وتهكم شديدين ·

وهو يؤمن بنفسه كشاعر ومجدد وان لم يكن زعيما :

انني منذ كنت أشدو بشعرى
كان يوحى الى بالتجـــديد
أنا لا أدعى الزعـــامة فيه
غير أني أبث فيه وجـــودى
حبذا الليـــل والنهار بعينى
انني مغـــرم بكل جديد
وجديد القـريض قرب معـــانيه
وبعد له عن التعقيـــد

ولقد أحب الزهاوى وقال شعرا عاطفيا رائعا :

نظرت اليها وهى بيضـــاء تبهج
نجد به ماء الصـــبا يتوهج
مشت ومشى قلبى المتيم خلفهـــا
يقبـــل أثار الخطى حيث تنهج
لها وهى أدرى العـــالمين بحالتى
هوى فى فؤادى ناره تتـــأجج
أريد اذا قابلتهـــا لابثها
غرامى بها لكننى أتلجـــلج
تمنيت ياسلمى وهل يتـــفع المنى
لو أن حيـــاتى فى حيـــاتك تمزج

الزهاوي المجدد

أجمع مؤرخو الزهاوى على أنه شاعر مجدد وانه جدد فى أربعة أمور :

◆ مكافحة العادات والتقاليد الباليه والدعوة الى التحرر والتجدد والاصلاح الاجتماعى ٠

◆ مناصرة المرأة والدفاع عن حقوقها ،

◆ ادخال النظريات العلمية ، والافكار الفلسفة المستحدثة فى الشعر ٠

◆ التحرر من قيود اللغة واستعمال المصطلحات العلميـة ومزاولة الشعر المرسل

وقد ثار الزهاوى على القديم جملة ٠٠ فى الفكر والسياسة والاجتماع ٠٠ وثار على الحكام المستبدين والطغاة الظالمين ٠ ونقد سلاطين آل عثمان وولاتهم مما أدى الى سجنه ونفيـه ومحاربته فى رزقه ٠

قال فى السلطان عبد الحميد الثانى وقد نفي بسـببها من الاستانة عام ١٨٩٧

لقد عبثت بالشعب أطمـــاع ظالم

يحمله من جـوره ما يحمـــل

فيا ويح قوم فوضوا أمر أنفسهم

الى ملك عن فعـــله ليس يسـأل

الى ذي اختيار في الحكومة مطلق

اذا شـاء لم يفعل وان شـاء يفعل

وما أعتقد أن شاعرا في الشرق العربى فى هذه الفترة قاوم السلطان هذه المقاومة أو عارض الحاكم الظالم على هذا النحو

وقد كان الزهاوى حفيا بنظريات الكون والوجود والجاذبية والنسبية والتطور والفلك والكهرباء . وضرب فيها بسهم وافر من منظومه ومنثوره .

وقد درس الزهـــاوى نظريات داروين فى التطور ونيوتن فى الجاذبية وانشتين فى النسبية وضمن شعره هذه الاراء . وهو أول شعراء العرب الذين عنوا بهذه الموضوعات .. بل هو أول من أدخل المصطلحات الحديثة فى الشعر العربى فترددت فى أبياته كلمات الاثير والالكترون والبروتون والكهرباء . وكان ذلك منذ أكثر من خمسين عاما .

وقد قال ناقدوه انه ما أن يقــرأ حكمة أو نظرية أو رأى مستحدث حتى يعمـــد الى قلمه فيدخله فى شعره . وقالوا أيضا انه ليس للزهاوى رأى جديد فى كل ما قاله من شعره . وانما كان ترديدا لما كان يقال فى صحـــف مصر من أحاديث سلامه موسي وطه حسين وهيكل وغيرهم من المجددين .

ويصف الزيات تهالك الزهاوى على التجديد على أنه خوف عاصف من الاتهام بالجمود · كان الزهاوى كشوقى (١)حريصا على متابعة العصر ومسايرة التطور · ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد ·· وحس مرهف يأنف التخلف ·· ويزيد الزهاوى أن الفجر يزهاه وأن التيه يذهب به ·· فيحب الثناء ويبغض النقد · وهو لفرقه من صفه القدم يسبق الكتاب الى التجديد· ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأى الى التطرف ولطمعه فى نباهة الذكر يجارى ميول الخاصة ·· ويعارض هوى العامة ·· ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعا على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم ·· وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين وتحقيرا للتأخر بمصادمة مألوف الامة ·

ولعلنا نضيف الى هذا أن الزهاوى قد جدد الشعر بادخال عنصر الفلسفة اليه حتى وصف بأن الفكرة الفلسفية هى المادة الاصيلة فى شعره ·

ويعزو بعض مؤرخيه نزعة التجديد فيه والدعـــوة الى الحرية (٢) الى ما تذوقه من نسمات الحرية فى الفترة التى أمضاها فى الاستانة ·· حيث عاش فى جو تركيا الفتــاة والدعوة الى الدستور وجهاد مدحت باشا فى سبيله ·· ولما تتلقفه من نسمات الحرية عن طريق الصحافة العربية فى المهجر ومصر ولبنان ·

(١) مجلد الرسالة ١٩٣٧

(٢) سليم طه التكريتى : الكتاب يونيه ١٩٤٩

ولقد كان الزهاوى (١) يحب شعره ويعتز به ويراه رفيقه وخليله ويرى فيه عزاءه عند الملمات ومسلية عندما تعتــوره الهموم ٠

يا شعر انك أنت صوت ضــميرى
بيديك حــزنى تارة وسرورى
يا شــعر أنت بكائى يوم كآبتى
وتبسمى يا شعر يوم حبــورى
أنا أنت يا شــعرى وأنت انا فمن
يقرأك يقرأ سيرتى وشـــعورى

ولقد ظل الزهاوى يكرر آرائه فى كل شــعره ، ويصر على رأى قاله بالرغم من خصومة الناس له ٠٠ وهو فى هذا يجيد اجادة ممتازة فى بعض الاحيان ويكرر نفسه ويستطرد ويبدو مملا وضعيفا فى أحيان أخرى ٠

وقد كره اللغة التقليدية والمحسنات البديعية واللفظية ٠٠ ولم يقف شأن الشعراء المعاصرين له عند المعانى العامة بل خاض معركة السياسة والحياة والمجتمع فى قوة

هذا وقد سببت نزعة الزهــاوى التجديدية له كثيرا من المتاعب والخصومات ولم يحتمل أهــل وطنــه جرأة آرائه

---

(١) محاضرات ناصر الحانى عن الزهاوى ٠

واندفاعه فردوا له الصاع صاعين

يانفس قد سبوك حين نصحتهم
هـذا جزاء الناصحين فذوقى
قالوا اطردوا الزنديق من أوطانكم
ماذا يخاف القـوم من زنديق
قالوا اقتلوه فانما هو مارق
مـاذا يضر المؤمنين مـروق
أنا لست زنديقـا ولا أنا مـارق
حتى يحـل لطفركم تمـزيقى

والزهاوى الشاعر المجدد له فى الحب شـعر عميق المبنى جديد فى العرض تتمثل فيه طبيعته الحريصه على أن يقـول ما لم يقله الشعراء من قبله :

أول الحب فى القـلوب شرارة
تختفى تارة وتظـهر تارة
ثم يرقى حتى يكون سـراجا
لذويه فيه هـدى وانارة
ثم يرقى حتى يكون مع الايـا
م نارا حمـراء ذات حرارة
ثم يرقى حتى يكـون أتونا
بحراراته تذوب الحجـارة
ثم يرقى حتى يكون حريقـا
فيه هلك لاهـله وخسارة

ثم يرقى حتى يمثـــل بركانا
يرى الناس من بعيـــد ناره
ثم يرقى حتى يكون جحيمـا
عن تفاصيلها تضيق العبـــارة

ومن آيات تحديده انه نقل العلم والطبيعة والفلك والكائنات وتعليل الجاذبية الى الشعر . يقول فى قصيدته « ســـياحة العقل » .

لا تقبل الاجـــرام عدا
كلا ولا الابعاد حـــدا
العقل يرجع خائبـــا
فيهـا وان لم يأل جهـدا
مسترشدا بعـــلومه
فيها اذا ما ضل يهـــدى
والعقل يعلم من سياحته التى أولته مجدا
ان المجـــرة لم تكن الا
عوالم فقن عـــدا
والسحب فيهـا أنجم
هن الشـــموس بعدن جدا
متحركات فى الســـماء
تخال ان لهن قصـــدا
متجـــاذبات لو تخلف
واحـد عنهـا لأودى

وهو يعاود الحديث عن شعره فى عديد من قصائده ويطالبك بالانصاف

ما الشعر الاشعورى جئت أعرضه
فانقده نقدا شريفا غير ذى خلل
الشعر ما عاش دهـرا بعد قائله
وسار يجرى على الافـواه كالمثل
والشعر ما اهتز منه روح سـامعه
كمن تكهرب من سلك على غفـل

وخلاصة رأيه فى الشعر الجديد أن يتحرر بجميع أغراضه من أسر التقاليد الجـامدة .. وان الاوزان بالنظريات التى وضعها الخليل ليست ملزمة وان التجديد يجب أن يشمل القوالب والمضمون .

الزهـاوى الناثر

أريد فى هذا الفصل أن أعرض للزهاوى الكاتب .. فقد خلف عددا من الابحاث والدراسات النثرية مما يدعونا أن نحلل معالم كتاباته . ومن هذه المؤلفات رســالة الكائنات (١) فى الفلسفة أبدى فيها رأيه الحر فى المكان والزمان والقوة والمادة والحياة والجاذبية ورسالة فى سباق الخيل (٢) أودعها تجاربه فى ركض الخيل . ورسالة فى الخط الجديد (٣) وقال عنها: هذا الخط لايشبه الخط العربى ولا الحروف اللاتينية ويقدر ان يتعلمه التلميذ فى أسبوع . وهو جميل ويكتب مفصلا من اليمين الى اليسار ومن اليسار الى اليمين . ويطبع مقطعا .. وفيه تسهيل للطباعة .. فان كل حرف منه اذا قلب كان حرفا آخر من الحروف مقام كل حرف بوظيفة حرفين وتعلم ما فى ذلك من الاقتصاد ..ويمكن لهذا الخط أن يتخذ خط عاما لجميع اللغات . ودروس الفلسفة (٤) التى كان ألقاها على تلاميذه فى

١ ـ طبعتها المقتطف بالقاهرة ١٨٩٦
٢ ـ طبعتها الهلال
٣ ـ نشرها المقتطف
٤ ـ القاهرة ١٨٩٤

جامعة الاستانة ورسالة الفجر الصادق فى الرد على الوهابية وقد طبع فى مصر قبل الدستور العثمانى ورسالة الجاذبية(١) وتعليلها ورسالة لعبة الداما وتحتوى على ١٥٠٠ لعبة منها ٥٠٠ لعبة لاصحابها و ١٠٠٠ من مستنبطاته (وهذه لم تطبع) وكتاب تسهيل قواعد اللغة العربية ورسالة الجاذبية وتعليلها(٢) وكتاب المجمل مما أرى (٣) .

وليس شك ان كل هذا المحصول النثرى الضخم يعطى للزهاوى صفة الكاتب . وان لم يصل فيها الى درجة الشاعر التى غلبت على حياته وفنه . ولعله مما يلاحظ أنه كان فى شبابه يكتب النثر وان كل هذه المؤلفات أو أغلبها طبعت فى الفترة الاولى من حياته وقبل أن ينفرغ للشعر تفرغ نهائيا .

يقول الزهاوى (٤) بنيت الادب على أنقاض عبد القادر العمرى والاخرس وكلاهما من الشعراء الوزانين المقلدين فلا جزاله فى ألفاظهما ولا ابتكار فى معانيهما .

ويقول الزيات أن الزهاوى كان فى شبابه ينظر فى العلوم الفلسفية الطبيعية وسبيله الى ذلك ما ترجم من المقالات والكتب .. ولم يعرف من اللغات غير الفارسية والتركية والكردية .. وانه ألف كتاب الكائنات فى الفلسفة . وكتاب

---

١ ــ طبعت ببغداد

٢ ــ بغداد ١٩١٠

٣ ــ مصر ١٩٢٤

٤ ــ رسائل الزهاوى ــ مجلة الكاتب المصرى ديسمبر ١٩٤٦

الجاذبية وتعليلها فى الطبيعة وخالف به أقطاب العلم • ومن ذلك قوله : أين علة الجاذبية ليستجذب المادة للمادة وانما هى دفعها لها بسبب ما تسعه من الالكترونات •

وقد عرض العقاد لهذه المسائل الفلسفية التى تناولها الزهاوى فى كتبه فى مقال له نشر فى كتابه ساعات بين الكتب كان قد كتبه عام ١٩٢٧ وفيه يقول : (١) اننى أوقر هذا الباحث الفاضل • وأعرف استقلال فكره واستقامة منطقه وجرأته فى جهاده • وغبنه بين قومه فلا أحب أن أقول فيه لغير ضرورة من ضرورات البحث مقالا لا يوائم ذلك التوقير ولا يناسب ماله عندى من القدر والرعاية •

أول كتاب قرأت للزهاوى كان كتاب الكائنات أو رسالة الكائنات لانها عجالة مختصرة من القطع الصغيرة وكان ذلك قبل عشرين سنة (أى عام ١٩٠٧) وأنا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة • ومباحث الدين والفلسفة • فراقنى من الرسالة سداد النظر وقرب المأخذ • ووضوح التفكير • والجرأة على العقائد الموروثة •

وكنت كلما عاودتها تبينت فيها منطقا صحيحا يذكر القارىء باشارات ابن سينا ويزيد عليهما بالجلاء والترتيب • ثم قرأت للزهاوى شعرا ونثرا وآراء فى العلم والاجتماع تدل على اضطلاع واستقلال ونزعة الى الثقة والابتكار • وكان آخر ما قرأت له رسالة المجمل مما أرى ثم شعر ينشره فى الصحف المصرية من حين الى حين •

١ ـ ساعات بين الكتب ص ١٩٧ وما بعدها •

.. واذا قرأت مباحث الزهاوى برزت لك ملكته المنطقيـة لا حجاب عليها ولمست فى آرائه موطن التحليل والتعليل .. ولكنك تصل فيها الخيال كثيرا والعاطفة أحيانا .. وتلتفت الى البديهة فاذا هى محدودة فى أعماقها وأعاليها بسدود من الحس والمنطق لا تخلى لها مطالع الافق ولا مسارب الاغوار.. فهو يريد أن يعيش أبدا فى دنيا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار لا تنطبق فيها الاجفان . لا تتناجى فيها الاحـلام وليست دنيا الحقيقة كلها نهارا وشمسا . ولكنها كذلك ليل وغيا هب لا تجدى فيها الكهرباء .

وهكذا يعارض العقاد آراء الزهاوى فى العلم . وهو ماكان موضع النقد عنـد كثير ممن أرخو للزهاوى أو كتبـوا عنه . يقول سليم طه التكريتى المحامى ببغداد (١) لقد بلغ من هوسه بهذه العلوم أن راح يناقض البعض منها ويرد على أصحابها..

ولكن العقاد لا يلبث أن ينصفه فيقول : الاستاذ الزهاوى صاحب ملكة علمية رياضية من طراز رفيع .. وانه يصيب فى تفكيره ما طرق من المسـائل التى يجترأ فيهـا بالاسـتقراء والتحليل ولا تفتقر الى البديهـة والشعر . فمن ينشـده فلينشده عالما ينظم أو يجنح الى الفلسفة فهو قمين باصـغاء اليه .. واقبال عليه فى هذا المجال .

والزهاوى الى هذا صاحب قلم وناثر ولغته قوية ممتازة .. وقد كتب فى الهلال (نوفمبر ١٧٢٦) تحت عنوان هل تدوم

١ ـ يونيه ١٩٤٩ مجلة الكاتب المصرى

نهضة الاتراك ٠٠ فقـال : ان الرماد الذى تراكم فى مـكان الحريق الهائل لم يخل من جمرة اذا نفخ فيها النافخ تأججت من جديد فكانت قوة كبيرة تستطيع عمل شيء جلل ٠ وهكذا كان الامر فان الغازى مصطفى كمال نفخ فى درع الامة التركية من روحه ٠٠ تلك الروح الكبيرة ٠٠ وهو بمعـزل عما كانت تكيده له الخلافة فى دارها حتى احياها ورأب صدعها واسترد بما جنده من فلول الجيش المدحور ٠٠ وهو لايملك يومئذ الا عزمه ما احتلته اليونان من بلادها وكان الفوز باهرا ٠٠ ويعطى هذا النموذج رتابة ذهن الزهاوى وجمال أسلوبه النثرى ٠

ويعزى اتجاه الزهاوى الى الفلسفة والى ادماجها فى شعره ونثره انه كان مدرسا للفلسفة الاسلامية فى الاستانة ٠ هـذا فضلا عن انه بطبيعته فيلسوف فيه حب للجدل والمناقشة ٠٠ وفى أسلوبه ذكر الاسباب والنتائج ٠٠ ولقد كانت لغته دائما أقرب الى لغة العلم ٠ وقد أحب مجـلة المقتطف لموضوعاتها العلمية ٠ ومؤلفات فانديك فى الفلك وكتب الدكتور ورثبات عن الفسيولوجيا والتشريح ٠ كما أنه قرأ مترجما الى التركية البؤساء لفكتـور هيجو كما قرأ أناتول فرانس وشـكسبير وجوته وتولستوى ٠ وكان معجبـا بشـاعر الاتراك الكبير نامق كمال ٠

ومما يتصل بعمل الزهاوى الناثر أنه عين فى عهد الاحتلال رئيسا للجنة تعريب القوانين التركيـة فعرب ١٧ قانونا بين صغير وكبير ٠ ٠٠

الزهاوي والمرأة

من أبرز معالم حياة الزهاوي وشعره اشتراكه في قضية المرأة ودعوته الى حريتها وتعليمها وسفورها .. وهو أول شاعر عربي يعطي هذه القضية قدرا ضخما من الاهتمام ويتكلم عنها بحرارة . ولم يسبق في ذلك الا بقاسم أمين . ولقد بدأ الزهاوي دعوته لتحرير المرأة منذ عام ١٩١٠ وقد تحمل في سبيل ذلك مشقة كبرى وواجه هجوما صاخبا من معسكر الرجعيين والمتزمتين . فقد كان لدفاع (١) الزهاوي عن المرأة في المجتمع العراقي وقعا أشد من وقع كتابات قاسم أمين في مصر وأبعد منه أثرا .. لقد أنفق نصف قرن أو يزيد وهو يدافع عن المرأة ويوالي حملته بايمان وحرارة . وقد طالب الزهاوي بتعليمها وسفورها ومساواتها بالرجل في بيئة كانت تسام فيها المرأة كما تسام الانعام . وقد نقد الحياة الزوجية في البيئة العربية وهاجم الطرق الخسيسة التي يجرى الزواج بموجبها وآمن بأن الحجاب من أسباب تأخر المسلمين .. ومن جملة شعر الزهاوي يظهر انه عالج خمس قضايا للمرأة .. السفور ومكافحة تعدد الزوجات ونقد طريقة الزواج والدعوة

١ ـ سليم طه . مجلة الكتاب يونية ١٩٤٩

الى تعليمها ومشاركتها فى الحياة العامة ومساواتها بالرجل يقول :

انما المرأة والمرأ سواء فى الجدارة
علموا المرأة فالمرأة عنوان الحضارة
يرفع الشعب فريقان أناث وذكور
وهل الطائر الا بجناحيه يطير
كيف يسمو الى الحضارة شعب
منه نصف عن نصفه مستور
ليس ترقى الابناء فى أمة ما
لم تكن قد ترقت الامهات
أخر المسلمين عن أمم الارض
حجاب تشقى به المسلمات
لايقى عفة الفتاة حجاب
بل يقيها تثقيفها والعلوم
هذبوا أرواح العذارى لتبقى
سالمات من العذارى الجسوم
أسفرى فالحجاب يا ابنة فهد
هو داء فى الاجتماع وخيم
انزعيه ومزقيه فقد أنكره العصر ناهضا والحلوم
اسفرى فالسفور للناس صبح زاهر والحجاب ليل بهيم
من بعدما انتظرت حقابا
ثارت فمزقت الحجابا

عـــربية عرفت أخيرا
كيف تنبـــذ ما أرابا
كان الحجاب يسومها خسفا ويرهقها عذابا
وســـيطلب التـاريخ من ناس
لها ظلمـــوا حسابا
سألت لها حـــرية منهم
فما لقيت جـــوابا
وليس من الدين الحجـــاب وانما
رجعنـــا الى أحكامه نتفهم
فان كان نص قائل بوجـــوبه
ولا نص فيه حســـبما أنا أعلم
نأوله حتى نوفـق بينـــه
وبين طريق العـــلم فهو المقدم
ليس ترقى الابنـــاء في أمـة ما
لم تكن قد ترقت الامهـــات
أخر المســـلمين عن أمم الارض
حجـــاب تشقى به المســلمات

وهذه النماذج منتقاه من شعره على مراحل وفترات مختلفة من حياته .

ويسجل الزهاوى في بعض رسائله أثر قضـــية المرأة فى فيقول : وعزلت عن وظيفتى في كلية الحقـوق بسبب دعى

عن حقوق المرأة .. وانى أنا الذى نظمت قصيدة امرأة الجندى يوم لم يكن فى بغداد شاعر يصرف الشعر فى اصلاح المجتمع .

ويقول الزهاوى فى موضع اخر من رسائله مصورا اثر شعره فى المرأة فى ولاية ناظم كانت جريدة المؤيد فى مصر قد نشرت لى مقالة أدافع فيها عن حقوق المرأة فقامت حول هذه المقالة ضجة كبيرة وأخذ المتعصبون يرغون ويزبدون يقذفوننى بالسب واللعن . وكان التعصب فى بغداد يومئذ ذا صولة فلم يسع الوالى غير عزلى من وظيفتى ارضاءا للرأى العام .

كما أدى قيام القيامة ضد الزهاوى عليه الى لزوم داره خوفا من القتل بعد أن تحرش به دهماء الشعب .

ولقد كان لدعوة الزهاوى أثرها [illegible] ايجابيا بالرغم من حملة خصومه [illegible] تعليم الفتاة فى العراق .

فنـــون شعره

أصدر الزهاوى ديوانه عام ١٩١٤(طبعه خيرالدين الزركلى بالقاهرة) وقد ضم شـــعره من عام ١٣٠٧ – ١٣٤١ هجريه (١٨٨٨–١٩٢٤) فى خلال ستـــته وثلاثين عاما وقد كتب على صدره هذه البيت

اذا الشعر لم يهرزك عند ســماعه

فليس خليقا أن يقال له شـــعر

وقد ضم الديوان خمسه عشر بابا تعطى صــورة التجديد وحسن التنسيق عند الزهاوى :

- الشهقات : فى الغرام
- هواجس النفس : فى مطالب فلسفية
- الحديث شجون : فى القصص
- الدم والنار : فى الحروب
- المشاهد : فى الوصف
- الدموع الناطقة : فى المراثى
- أنين المجروح : فى البث والشكاه
- القارعات : فى الحث على التقدم
- الشعر والشعراء : فى القريض والشاعر
- الليل والنهار : فى الاجتماع

- **وحي الضمير : في الوطن**
- **المرآة : في النساء**
- **فلق الصباح : في الترحيب**
- **بقايا الشفق : في مطالب شتى**
- **الخطرات : متفرقة**

وتعطى هذه الابواب صورة شعر الزهاوى كله فقد أصدر هذا الديوان وهو فى سن الستين · وقد استطاع ان يضرب فى جميع مجالات الشعر وفنونه وألوانه محبا ومصلحا اجتماعيا وسياسيا ورائيا ووطنيا ·

وقد ظل الزهاوى فى شعره نابض الحرارة حتى بلـغ سن السبعين ·· وشارك فى محاربة الظلم والاستبداد والرغبة فى رقى الشرق ومقاومة الخرافات التى دخلت الى الاسلام ومقاومة الخرافات التى دخلت الى الاسلام ومقاومة الحجاب وسـلطان رجال الدين وان كان كل مـا قاله لم يكن جـديدا ·· الا انه سبق زمنه بمائة عام · وتقدم الشعراء جميعا فى هذا المجال·

وفى الزهاوى روح من دعوات جمال الدين الافغانى ومحمد عبده للاصلاح السياسى والدينى وفيه من الكواكبى حملته على الاستبداد ·

والزهاوى يرى كل قصيدة هى القصـيدة الاولى والاخيرة فلا يبالى أن يكرر فيها ما قال فى قصائد أخرى

ويقول فى مقدمة ديوانه : ربما عرف المطالع شـعرى حالة بلادى السياسـية ودرجتها من الرقى فى السنين التى عشت

فيها وعرف عن حياتي ما لم يعرفه من التراجم الطويلة .

وأغلب شعر الزهاوي دعوة الى الحرية والتجديد وثورة دائمه على الجمود والتقاليد والقيود الفكرية والاجتماعيه فقد كان يؤمن بان الشرق لايتم له التقدم الا اذا تحرر من هـــذه القيود التي غلت تفكير أبنائه

وبيتاه هذين يرمزان الى مذهبه واتجاهه كله :

سئمت كل قديم عرفته في حياتي

ان كان عندك شيء من الجديد فهات

غير اننا اذا ذهبنا نقارن شعر الزهاوي في ديوانه هذا مع ديوانه الاول الذي أصدره عام ١٩٠٧ أي قبله باكثر من خمسه عشر عاما وهو الكلم المنظوم نجد فارقا بعيدا . فقد كان ديوانه الاول مجموعة من القصائد التي قالها أيام الاستبداد ونشرها في الصحف المصرية بتوقيعات رمزية خوفا من السجن .

وكان الزهاوي راضيا عن الاتراك والسلطان في أول الامر ثم تغير رأيه عندما بدأ الاحرار الاتراك دعواهم فأصبح موضع رقابة شديدة مما حمله الى العودة الى العراق مخفورا .

ولما رأيت الغدر في القـوم شيمه

وان مجـــال الظلم فيهـــا يوسع

وان كلام الحق ينبذ جانبـــــا

وان أراجيف الوشـاية تســـمع

خشيت على نفسي فأزمعت رجعـه

الى بلدي من قبـــــل اني أصرع

وهل راحة في بلدة نصف أهلهـا
على نصفه الثاني عيـــون تطلع
تراقب أفعالي وكل عشيـــة
الى «يلدز» عني التقـــارير ترفع
ويقول الزهاوي في المقارنة بين الشرق والغرب :
الشرق ما زال يحبو وهو مغتمض
والغرب يركض وثبـا وهو يقظان
والغرب أبناؤه بالعلم قد سعدوا
والشرق أبناؤه في جهل كما كانوا

الزهاوى شاعر القومية العربية

الزهاوى «شاعر الحرية» ما فى ذلك شك ولا ريب . لقد عاش للحرية حياته يوما يوما وساعة ساعة .. كان كل شعره وقودا لهذه الشعلة المقدسة . شعلة الحرية . فقد كان يحب الحرية حبا يفوق كل حب ويدعو اليها ويطالب بها ويغنى لها . وهو اذا حرم منها ضاق بها وظل يصرخ صرخاته القوية الجبارة .

والزهاوى شاعر القوميةالعربية غير مدافع .. حمل لواءها ودعا اليه منذ خمسين عاما وضج بالدعاء .

ولقد عاش الزهاوى فى عصر عبد الحميد .. وعاداه .. وأرسل اليه قصيدة صائحا بدعوة الحرية فى وجه الرجل المستبد الذى كانت الناس تخشاه وتحمل فى سبيل صيحته كل أذى وسجن ونفى واخراج .. ولكنه ظل مؤمنا بدعوته .. ومضى مواصلا اياها .. فاذا ضاقت به العراق عن أن يقول فيها كلمة الحرية أرسلها بالبريد الى مصر لتنشر فى صحفها دمضاء مستغار .

واذا قلبنا ديوانه وجدنا شعر الحرية هو أغلب شعره وأعمه ، وهو أصدق شعره وأشده أثرا فى النفس

أبناء دجلة والفرات نيام
عن حقها وتسرها الاحلام

واذا الحقـائق لم تجـد في أمه
سندا تقـوم مقـامها الاوهام
ان العـراق به يعيش لشـقوة
شـعب يسـام الذل ثم يسـام
الهوه حتى صـار فيهم طابعـا
من طـول ماصـفعتهم الايام
لو كلفـوا مشيا على رأسهم
لمشوا كأن رؤوسـهم أقدام

فهو يدعو أهل العراق الامجاد في صيحة جبـارة قوية ان هبوا ولا تحتملوا الذل ولا ترضوا به .

لا يبتغي استقلاله شعب له لم يسـتعدا
شعب اذا لم تستبد به حـكومته استبدا
شـعب يلم بشره واذا ألم فلا مردا
شعب يظن الجد هزلا كله والهـزل جدا
شعب يعرض للطغام بكل يوم منه خـدا

ولكن الشعب كان قوي الشكيمة لم يغفر للاسـتبداد ذله فثار ثورة حامية حرقت على الدخيل الاخضر واليابس
وهو لا يدعو بغداد وحدها الى الحرية ولكنه يدعو الشرق كله .

عظيم على الافكار في عصرنا الحجر
أما كل انسـانه بآرائه حـر

وهل فقه الشعب المريد انطلاقه
من الاسر ان الحجر فيه هو الاسر
وهل نافع تحريره من اساره
اذا لم يكن فى رأسه حرر الفكر
وأى رقى فى الحياة ميسر
لقوم يقول الحق ما أن لهم جهر

يرومون للافواه كما بعنفهم
وذاك لعمرى ثم ذاك هو النكر
اذا الشرق لم ينفع من القطر غله
بأكباده الحرى فلا نزل القطر
لقد طال ليل الشرق بعد نهاره
أما بعد ليل الشرق محلولكا فجر
ولابد من أخذ العروبة حقها
وان حالت الاقدار أو خذل الدهر

وهو فى هذا يدعو الى القومية العربيه مؤمنا بها
وكلما جاءت المناسبات ذكر العراق شعبه المكبل بالقيود
ودعا الى الحرية فى قوة

عيد ألم على يأس بمملكة
وليس فيه لجرح سال تضميد
حيث الدخيل سعيد من تزلفه
وعن مواطنه للحر تشريد

الحق يوطأ بالاقـــدام منسحقا
وما هنـالك يحمي الحق صـنديد
نالت مطالبها الاقوام قاطبـــة
ومطلب العرب المهضـــوم مردود
وما بكل بلاد العـــرب من جـذل
ولا بكل بلاد العـرب مسعود

وهكذا يتكشف الزهاوى فى كل شعره على انه ليس شاعر الحرية فحسب ولكنه شاعر القومية العربيـــه كما يؤمن بها العرب ويعملون لها ٠

وهو محب للوطن ٠ صادق الحب ٠ يكره هوانه و يواجه حكامه بالنقد

أفديك ياوطن نشـأت بارضـــه
ومرحت فيه يافعـــا وغـلاما
بالذل لا أرضى وان ســـلمت به
روحى وأرضى بالحمـام زؤاما
حى الذين اذا الهـــوان أصابهم
تخذوا الاباء من الهـــوان عصـاما
يا قومنا لا نفـــع فى أحلامكم ٠
فخذوا الاباء من الهوان عصـــاما
يا قومنا لا نفع فى أحـــلامكم
فخذوا الحقائق وانبذوا الاحـــلاما
انى لاربأ أن أكـون محبـــة
فى الحـــادثات ولا أكـون حساما

ولقد يزيد الظـــالمون لنفسهم

بالظلم من شر يلم ســلاما

ولست أعتقد أن أدب القوة يمكن أن يؤدى بأقوى مما أداه الزهاوى فى قصائده الحماسية الثــائرية التى دعا فيهـا الى الحرية ..

فهو حامل مشعل الحقائق يدعو الى نبذ الاحلام والاوهام. وهو داع دائما وأبدا الى الاباء من الهوان والى نبذ الرضــا والتسليم والى قبول الحمام والمــوت دون الاوطان وحرياتها وكراماتها .

وهو فى أبان الحكم العثمانى يقذف الدولة العثمانية بأسواط ملتهبة من شعره يشق بها ظلمات الليل البهيم الذى يعيش فيه العرب

ومـا هى الا دولة مســتعبدة

تسوس بما يقضى هواها وتعمــــل

فترفع بالاعزاز من كان جاهــــلا

وتخفض بالاذلال من كان يعقـــل

الا انما بغداد قد أصبـــــحت بهم

يهددها داء من الجهل معضــــل

وقد عبثت بالشعب أطمـــاع ظالم

يحمله من جوده ما يحمــــل

فتعسا لقوم فوضـــوا أمر نفسهم

الى ملك عن فعله ليس يســـأل

فيا ملكا في ظلمـــه ظل مسرفا

فلا الامن موفور ولا هو يعـــدل

ولعلها أول صيحة في الشعر العربي لمواجهة ظلم عبدالحميد يرتبط فيها الزهاوي بصاحبه الكواكبي صاحب كتاب مصارع الاستبداد .

نحن في غفله نيـــام وعنا

نائبات الزمان غير نيـــام

نحن في دوله تدار كهـــا الله

تبيح المحظور للحـــكام

وعدوها بالاصـــلاح جم ولكن

لا يجوز الاصـــلاح حد الكلام

نحن قوم قضت ارادة شـــخص

واحد أن نعيش كالانعـــام

أيها الظالم اغتصبت حقـــوقا

قد حبـــاها الانام رب الانام

وما أظن أن السلطان عبد الحميد واجه من الهجـــوم مثل ما واجهه به الزهاوي شاعر الحرية والقومية العربية

قد أسمعتك أنينهـــا الاوطان

بضعيف صوت ملؤها الاشـــجان

مدت اليك يد الشـــكاة لانهـــا

قد عاث فيها الظلم والعـــدوان

أدرك بها الضعفاء واســـتعجل فقد

عز النصير وقلت الاعـــوان

ان كنت تنصرها وتحمي حوضها

عن غاصب فلقـــد أتى الابان

أدرك بنصر أمر قومـــك أنهم

ظلموا فريع الشيب والشـــبان

وهو مايزال يحمل على الظلم حملات متعددة ·· لايتـوقف ولا يتراجع ·· وانما يمضى بقلمـه النـــارى يعدد اثام الظلم وشره ويدعو الى العدل الذى هو الحرية

خفف من الظلم ابقـــاء وتهوينـــا

فالظلم يقتلنا والعـــدل يحيينا

يا مالك الامر ان الناس قد ضجروا

عامل برفق رعـــاياك المساكينا

لهـــوت عنا بما أوتيت من دعـــة

فأبيض ليلك واسـودت ليالينـــا

ليست طريقك محمـــودا مغبتهـــا

فأبدأ اذا شئت في الاحوال تحسينا

وهو من دعاة السلام · يكره الحرب وينفر منها

الحـــــرب للمتهوسين

هى الطريق الاوعـــر

الحرب لولا أن تحس ضرورة لا تشـــهى

تضنى بالذى هو ظافـــر

وتذل من لا يظفـــر

فى الحرب لا تلغى من القفتين من لا يخسر

فماذا أمل الدستور الجديد عام ١٩٠٨ استقبله الزهاوى ؟

فرحا به مغتبطا متوقعا حياة جديدة للعرب وبابا جديدا للحرية

البرق أهدى لنا بشرى بهـا امنت
أرواحنا بعد طول الخوف والرهب
بشرى كما تبتغي الامال صـادقة
أحبهـا الناس من قاص ومغترب
صاحت لفرحة هذا العيد أفئـدة
كانت تئن من الارزاء والنـوب
صاحت سرورا وكانت قبل فرحتها
تدعو على كربها بالـويل والحرب

ويمضى الزهاوى داعيا الى الحرية مؤمنا بها لايتخلف عن الركب فاذا بدا العرب يتحررون من نير الترك ومضى الترك يكيدون للعرب واجههم بالحقائق

وما فئة الاصلاح الا كبـارق
يعـزل بالقطر الذى ليس ينـزل
لهم أثر للجـور فى كل بلدة
يمثل فى أعمـالهم ما يمثل
اذا نزلوا أرضا تفـاقم خطبها
كأنهم فيها البـلاء الموكل

وتبلغ الزهاوى قمة ايمانه بالحرية فى قصـيدته الذئحة يرثى بها من شنقهم أحمدجمال باشا السفاح الوالى التركى على سوريا من أحرار العرب

على كل عـود صـاحب وخليل
وفى كل بيت رنة وعـويل

وفى كل عين عبرة مهـــرافة
وفى كل قلب حسرة وغليـــل
عـــلاها وما عير الفتوة سلم
« شباب تسامى للعلى وكهـــول »
كأن وجوه القـــوم فوق جذوعهم
نجوم سماء فى الصـــباح أفول
كأن الجذوع القائمات منـــابر
علت خطبـــاء عودهن تقـــول
لقد ركبـــوا كور المطايا بحثهم
الى الموت من وادى الحيـــاة رحيل

أجالوا بهاتيك المشـــانق نظرة
يلوح عنيها اليأس حين تجـــول
وبالناس ان حفـوا بهم يخفرونهم
وقوفا وفى أيدى الوقوف نصـــول
دنوا فرقوها واحدا بعد واحـــد
وقالوا وجيزا ليس فيه فضـــول
فمن سابق كيلا يقـال محـــاذر
ومستعجل كيلا يقال كســـول
ولله ما كانوا يحســـون من أذى
اذ الارض تنـــأى تحتهم وتزول
واذا قربوا منهـا واذ صـعدوا بها
واذ مس هاتيك الرقاب حبـــول

وما هى الا رجفـــة تعترى الفتى
مفاجأة والرأس منه يميــــل
مشوا فى سبيل الحق يحدوهم الردى
وللحق بين الصـــالحين سـبيل
ستبكى على تلك الوجوه منـــازل
وتبكى ربوع للعـــلى وطلول
وأعظم بخطب فيه للمجد شـقوة
وفى جسد العليـــاء منه نحول
سرت روحهم تطوى السماء لربهـا
وما غير ضوء الفرقدين دليـــل
ولله عيدان من الليل أثمرت رجالا
عليهم هيبة وقبــــول
هوت أمهم ماذا بهم يوم صـــلبوا
على غير ذنب كى يقال دخــــول
سوى أنهم قد طالبـــوا لبلادهم
بأمر اليهم فخره ســـيؤول
ونادوا باصلاح يكون الى العـــلى
وللنجح والعمران فيه وصــــول
فما رد عنهم عنهم بالشفاعة عصبة
ولا ذنب عنهم بالســـلاح قبيل
وهكذا يصل الزهاوى الى القمة فى ايمانه بالحرية ودفاعه عن القومية العربية

وهو لم يقف عند حد مقاومته للعثمانيين ولكنه ظل يقاوم الانجليز فى العراق فى كل مناسبة يحس فيها بأنهم يقاومون حرية الشعب أو يغصبون حقه الشرعى

تلغى معـــاهدة وأخرى تعقد
والشعب يستفتى لها ويهـدد
والشعب يطرى للجـــالة خنجـرا
فى صـــدره عما قريب يغمـد
وكان يوم الغاصـــبين لحقهم
ليل وهذا الليـــل بحر مزبد
والشعب بالقيد الثقيـــل مكبل
حتى يكاد اذا تحـــرك يقعد
للبعض كـــوخ واطىء ولبعضهم
صرح كما شـــاء النعيم ممرد

والزهاوى بعد هذا كله بشر فاذا أخذ عليه نقاده ضعفا فى بعض مراحل حياته أو موقفا هنيا فانما يجب أن نذكر انه كان يعيش فى فترة من أحلك الفترات التى كان يمر بهـا الشرق حيث الاستبداد والاستعمار والبلاء كله يصب على الامة العربية من الترك والانجليز على السواء وان روح المقاومة الفعلية لم تكن قد أخذت بعد صورتها الحية القوية التى نراها اليـوم . فهو بالنسبة لجيله فى دعوة الحرية والقومية العربية سباق متقدم عن جيله وقد رجحت حرارة أيمانه وصـــدق كفاحه بما أخذ عليه رجحانا كبيرا

بغداد فى شعر الزهاوى

أحب الزهاوى بغداد حبا قويا عميقا صادقا لم يتغير ولم يتحول وقد سجل فى شعره فى مئات المواضع شغفه بالعراق وحبه له ولكن حبه لم يكن تقليديا يصوغه مدحا• وانما كان حبا بصيرا يحمل معنى الايمان بالوطن • والدعوة الى تحريره وتخليصه من قيود الفكر وقيود الاجتماع وقيود السياسة •

وقد كان يكره بغداد أحيانا حين كان يحكمها المستبدون من الاتراك :

كراهيتى لبغداد فى شدة وازدياد
ابدل لى قربها بالبعاد
كرهتها نفسى وملّ فؤادى

وهو فى هذه الفترة يسميها دار الظلم والجهالة والفساد ويقول انه فى كل يوم مصيبة تتحدد ومشكل يتولد

أين ذهن قد كان يشـــبه برقا
سرعة فى فهم الامـــور وخفقا
حرقته نار التوقد حـــرقا
انك اليـــوم لو تفتشى تلقى
حجرة منه فى ركام الرمـــاد

ذلك أن الزهـاوى الانوف المعتز بشخصيته كان يود أن يختار لعمل ممتاز يليق بمكانته وشعره .. فهو فى غير مكانه ثم هو يلقى حملات الخصوم من حوله فلا يلبث أن يقول :

سجن بغـداد فى الحقيقة قبر
موحش فيه تدفن الاحيـاء
هجرات فى جوفهـا ظلمـات
فهى فى الليل والنهـار سواء

وقـد ظل يحس بأنه دون قـدره .. وانه لم يعط ما كان خليقا به .. فحمل على العراق فى صورة حكامها من العثمانيين

اننى اليـوم فى بلادى أسير
ليت شـعرى متى يكون فكاكى

وفى ابان هذه الازمة النفسـية فكر فى الهجرة الى مصر فنظم قصيدته الخماسية

« أنت مصر ملجأ الاحرار » وفيها يقول :

شاعر بالعراق ينظم شـعرا
فيرى دون نشـر ما قال عسرا
فيهادى به على البعـد مصرا
حيث يلقى الشـعر المهذب نشرا
ان مصر ريحانة الامصـار
تبلغ النفس عند مصر مناها
طيب الله بالسـلام ثراها
بلده حبيب النجاح سـقاها

يجد الحر مأمنـــا في ذراها

أنت يا مصر ملجـأ الاحـرار

كان ذلك في أوائل القرن العشرين .. عندما فكر الزهاوى في الهجرة من بغداد الى القاهـرة . وخرج غاضبا ولكنه لم يلبث أن عاد بعد قليل الى بغداد :

وكنت هبطت قبـل سنين مصرا

فلم أهــدأ وفضلت الايابا

ذكرت مواطنى وذكرت أهـلى

وليلى والصـبابه والشـبابا

وقلت لقد نأت بغـداد عني

فليت الدهـر يمنحنى اقترابا

ولو أنى رجعت الى بـلادى

لقبلت المنـازل والترابا

وهكذا يبدو حبه لبغداد قويا دافقـا حتى انه لا يلبث أن يقول :

انى اذا احتاج العراق فبالحياة له أجود

ان لم أذد أنا عن حقوق للعراق فمن يزود

ثم يعتدل رأيه في العراق بعد أن تتكشف غمة الحـكم العثمانى ويبدأ الحكم الوطنى بعد أن يلى الملك فيصل الحـكم في العراق :

قد ذقت صابا فى حياتى بالعراق ، وذقت شهدا

ولقيت فيما قد لقيت بموطنى بخسا وسـعدا

ورأيت بعد المد جـزرا ثم بعد الجـزر مدا

وقد شارك الزهاوى فى الحياة السـياسية فى العـراق مشاركة فعلية حتى ليشمل ديوانه جانبا كبيرا من صورةهذه الحياة .. صور فترة الظلام التى سادت العراق أيام عبدالحميد ثم كيف تكشفت السحب عند بدأ عهد الدستور فى الدولة العثمانية ثم كيف بدأت العراق تقاوم الاحتلال البريطانى فى العراق ويقيم الحكم الوطنى فيه

ونظم الزهاوى شعرا فى استقبال فيصل وفى استقلال العراق وفى الحياة النيابية وشارك فى استقبال غازى وبزوك حكمه .

وقد سجل الزهاوى فى مذكراته التى عرفت باسم رسائل الزهاوى حالة العراق عند مولده عام ١٨٦٣ فقال : كان عـدد سكان بغداد فى العهد الذى ولدت فيه مائتى ألف نسمة تقريبا وحالتها الاجتماعية يومئذ منحطة ولا غـاية لاكثر رجالها الا التزلف الى الحكام الاتراك وولائهم ولا منافسة الا فى الرتب والالقاب .

وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩٣٢ (وقت تحرير مذكـراته) ٣٥٠ ألفا وكانت العراق فى رخاء غير أن الجهل كان يسـود أكثر أهله ولم تكن فيه يومئذ هذه المدارس المدنية المنتشرة فى أنحائها الا الكتاتيب والمدارس القديمة الدينية وكان التعصب شديدا .

وفى بعض شعر الزهاوى يذكر العراق فيقول :

أنا والحق في العراق مضـــاعان
وما فيه غيرنا بمضـــاع
واذا جرت البقاع شـــقاء
لمقيم فتلك شر البقـــاع

وقد صور الزهاوي بغداد في أكثر صورة جميلة رائعـــه مسجلا انها هي التي أوحت اليه الشعر :

هناك في بغداد على ضفة دجلة سماء صافية زرقاء تلمع في ليلها النجوم فرادى وازواجا واشـــتاتا وركاما وأرض خضراء أديمها هي منبت جسدي وعقلي وأصحاب يوالون وأعداء يناوءون وجهاد مستمر وآمال بيض ويأس أسود ٠٠ وفساد في النظام وعادات سيئة تضر بالمجتمع ونفس لي حرة لا تقيم على الضيم كل ذلك قد أنطقني شعرا هو شعور كان يجيش في نفسي قبل أن أنطق به ٠

بين الزهاوى وخصومه

عاش الزهاوى حياته فى حرب متصلة بينه وبين خصومه هو بعناده وجرأته واندفاعه فى اعلان الرأى الجرىء وخوض معارك الحرية ومهاجمة العـادات المألوفة يثير فى كل يوم خصومة مع الحكام والـولاة ورجال الدين والمحافظين . ولم يكن الزهاوى يصبر على النقد أو يبتسم له أو يسخر منه . وانما كان يواجهه فى غيظ وكراهية وألم . يبلغ به أحيانا حد البكاء .. وقد يدفعه الى التفكير فى الهجرة والخروج من أرض الوطن .

وقد احتال لاعلان آرائه بكل وسـيلة .. كان ينشر آرائه وقصائده بتوقيع رمزى .. وكان ينشرها فى غير صحف العراق .. ولكنه لم يكن يتنازل عن تصـميمه وهو لم يعش يوما دون معارك أو خصومات مندفعا فى حماسة وعاطفـة وعناد .. وقد سجل أنه كابد فى حياته مزيدا من الشـقاء والاضطهاد . وأنه رأى عادات سيئة وفساد .. وأن نفسـه الحرة دفعته الى أن يقاوم هذا كله ويعمل على ازالتـه . وقد شغل الرأى العام بآرائه الجديدة الجريئة فخلق خصـومات ناقده كانت نوالبه بالتقريع والهجاء .

وقد صور الاستاذ ناصر الحاني فى محاضراته عن الزهاوى هذا الجانب من حياته فقال : وأغرب ما فى أمـره ان اندفاعه المشهور وحماسته التى جاز خبرها حـــدود الرافدين · وقد اعتراها صمت طويل وصحب هذا صـــخب عليه · وتقـول متضارب فى وطنيته وقوميته · وقد عزز هذا التقول ما أسندته السلطة المحتلة من مناصب للزهاوى قد لا تكون أعلى منه مقاما ولكن الظروف التى عهدتها اليه نابية جائرة فصـــارت وبالا عليه · وظل فى حيرة من أمره وصار الناس ينظرون اليه بعين الشك والارتياب ولا يطمئنون اليه فكثر أعداؤه ومقبـــاوموه وكثر الذين يريدون أن يوقعوا به ·

ولم يكن ليحتمل ما وقع له فظل مضطربا يخشى النــــاس ويتوهم أنهم سيوقعون به لا محالة ·· وكأنه أدرك فشـــله بالمشاركة بأقسى محنة عرفتها (١) بلاده · فحـــاول أن يلوذ بالتقاليد التى رزح فيها الناس والمشـــكلات الاجتماعية التى تحفهم فحمل على العقائد الباليه · ودعا الى التحرر الفكرى ·· ومساواة المرأة بالرجل · ولم يكفر هذا سيئته عند الناس · فقد حاول أكثر من مرة أن يهجر العراق بعد أن توالى عليـــه النقد والتقريع ·· فقرر السفر الى سورية بعد سنتين مضتا على الثورة ولكنه لم يسافر الى سوريا وسافر الى مصر ·

(١) ثورة العراق عام ١٩٢٠

وهو فيما يتصل هذا قال قصيدته :

سأرحل عن بغداد رحـــله عائف
فقد طال في دار الهـوان قعـودي
وأفرح من آلي ومـــالي وموطني
وما كان لي من طارق وتلبـــد
ولم في عمـــرى كبغداد منزلا
به العلم لا يجزى بغير جحـــود
رأيت بها بؤسا وشـــاهدت نعمة
فلم أسترح من شـــامت وحسود

يقول الاستاذ ناصر : ولم يستطع الزهاوى أن يطيل مكثه خارج العراق فكانت غيبته استجماما فصدفت الناس عنه قليلا فأستطاع بعد عودته أن يخوض غمار الاحداث العـــامة وأن يوقف نفسه لها فيثيرها ضجة على الحكومة .

والواقع أن الزهاوى كانت له مع أهل وطنه مواقف لعلهـــا هى التي دفعتهم الى الحمـــلة عليه . ولعلها هى التى جعلته يسرف في الدعوة الى التجديد والحرية وتحرير المرأة .

ومن أهم هذه المواقف : مديح الزهاوى للسلطان عبدالحميد أولا ثم حملته عليه .. وفي ديوانه الكلم المنظوم قصيدة يقول فيها :

لسلطاننا عبد الحميد ســـياسة
طريقتها في المعضـــلات هى المثلى
ماذا على الســــلطان لو أجرى
الذى يشتاقه الاحرار من اصــلاح

سللت لنصر الدين سيف وعـزمة
فللت به ما لم يكن فيه سـهلا

فجهزت جيشا لنجهـاد عرمرما
قهرت به ذاك العـدو الذى ولى

ومن هذه المواقف قصيدته فى مدح الانجليز والتى جعـل عنوانها ولاء الانجليز (١) وفيها يقول :

وجدت الانجليز أولى احتشـام
أباه الضيم حفاظ الزمـام

أحب الانجـليز واصطفيهم
لمرضى الاخـاء من الانام

ولقد كان لهذه القصيدة أثر مظلم شديد الظلمة على حيـاة الزهاوى فقد لحقه عارها طوال حياته وكانت كما قال الاستاذ ناصر من أسباب حملة خصومة عليه وهجرته .

وقد كتب الزهاوى فى رسائله (٢) معلقا على هذا الحادث الخطير فقال : لما ذهبت الى الاستانة واختلطت بالترك الفتيان أبعدت بالتجاهر ونشر القصائد بأسماء مستعارة فى أمهـات الصحف المصريه • وقد ذهبنا فى حـرب الانجليز والبـوير جماعة من الترك الاحرار نتمنى للانجليز الفوز فى محاربتهم وذلك بقرار من الحزب المناوىء لعبد الحميد •• يريدون بذلك أن يعضدهم الانجليز فى طلب الدستور • وكنت نظمت لهذه

١ ـ ديوان السلم المنظوم
٢ ـ الكاتب المصرى ـ ديسمبر ١٩٤٦

النهاية قصيدة امدح فيها الانجليز واشدو بقوة اسطولهم ·وقد نشرت فى أول ديوانى (الكلم المنظوم) والى الان يعيبنى ناقدى على هذه القصيدة · ولكن هل كنت يومئذ أعرف أنه ستحدث حرب عالمية ويحتل العراق · هذا ما لم يخطر فى بال أحد ·

وهو دفاع ضعيف ولاشك ·· ولعل الزهاوى قد حاول بعد ذلك أن يدفع بشعره فى مجال الكفاح الوطنى ليغطى على هذه القصيدة وهو أن كان قد رثى بعد ذلك أحرار سوريا الذين شنقهم أحمد جمال السفاح فانه صور الثورة بصورة الوبال على البلاد ·

وقد كان مما أخذ عليه انه قعد عن الثورة العراقية الضخمة فلم يتناولها ببيت واحد من الشعر ، وقد كان مما أخذ عليه أنه قعد عن الثورة العراقية الضخمة فلم يتناولها ببيت من الشعر

ومما يسجله الزهاوى فى هذا الصدد ويأخذه عليه خصومه انه عندما وقعت الحرب العالمية واحتلت الجنود البريطانيـــة بغداد ·· أرادت أن تأخذنى الى الهند أسيرا · ولكنى أبرزت ورقة فيها صراحة بأنى مكاتب جريدة المقطم فأفرجوا عنى ·· وكانت هذه الجريدة موالية للانجليز

وقد صور الزهاوى موقف خصومه منه فى بعض شعره :

قالوا دخيـــل فى القريض فما أجـاد ولا أجدا
قالوا صغير لا يعد من الفحـــول ولن يعدا
قالوا الى الاحسان منه غيره فى الشعـر أهدى
وله جراءه فيلسوف يوسع الاديان مجـــدا

ويصور خصوماته دائما بأنها فى سبيل الفكر :

وما ان لي الى الجهـــال ذنب

فيغريهم بنفسي ان يكيـــدوا

سوى أني مخـــالفهم واني

لكل خرافة منهم جحـــود

وقد توعده قوم بالقتل لجرأة رأيه ولكنه لا يبالي بهم :

توعدني بالقتل قـــوم وانما

لكل امرىء في الموت يوم وميقات

برئت من العلياء ان كان لي بما توعد في القوم اللئام مبالاة

وربما أراد الزهاوى أن يكفر عن هذه الاخطاء فقال فيمقدمة ديوانه الذي أصدره عام ١٩٢٤ « ما حمدت الا من ظننت فيه خيرا للبلاد وربما خاب ظني في بعضهم فكففت »

قد مدحت الذين لم يســـتحقوا مدائحي

احســـبوها على ضرورتها من قبائحي

ومن المآخذ التي سجلها هو على نفسه مدافعا عنها قوله قد يعلق بذهن الشاعر شطر من بيت سمعه لمتقدم فيأتي بعد سنين في تضاعيف قصيدة له لاقتضاء المقام لذلك · وهو ناس أنه مقول · فتقوم عليه القيامة ويرمى بالسرقة ··

كما يعتذر عن بعض شعره الذي وصف بأنه نظم ركيك او سطحي المعاني :

لا أغالي فربما قلت شـــعرا

لم آكن في قرضي له بالمجيـــد

منه بكر يطرى ومنه عـــوان

لم يحز رتبة الكعـــاب المزيد

قلته لاهيا فى شبابى

من هموم الهوى وبرح الصدود

يوم للغيد كنت أصبوا ومن

ذا ليس يصبوا الى الحسان القيد

ثم أرهفته فكان سلاحى

ثم غنيته فكان نشيدى

ثم صيرته مجنا ، يقينى

من فروق شر عبد الحميد

الزهاوى والموت

للموت فى شعر الزهاوى مكان كبير .. فهو الرجل المجدد الذى حاول أن يقتحم فى الحياة بقوة .. كان يعـــود فيذكر الموت ويخشاه ويقف عنده وقفات تختلف مع السن .

وهو يصور فكرة الموت وما بعد الموت من أهوال :

للمرأ فى الارض الفضــاء مســاكن
انى مضى والقبر آخر مســكن
والموت فوق جنــادل وصــفائح
كالمــوت حم على فــراش لين
قالوا وراء الموت أهــوال ولم
أحفل بما قالـــوا ولم أتيقن
ولعل هذا الموت مبدأ رحــلة
للروح خالـــدة وراء الازمن
وكأننا صور الخيـــال لبرهة
تبدو وتخفى فى شــعاع الاعين
قد سرت قبلى للــورى متعجــلا
ولعلنى بك لاحـــق ولعلنى
لا تسألونى عن مصــير من انطووا
أنا بالعـــواقب لست بالمتكهن

ويقول في موضع آخر من القصيدة :

تبني الحياة لها الصروح من المنى
والموت يهـــدم كل ما هي تبتني
في الكون هـــذا كل شيء ممـــكن
الا البقـــاء فذاك ليس بممكن
لابد من مـــوت لمن هو عائش
فأشجع اذا قابلتـــه أو فأجبن
ان المـــوت لرابض متحين
مـــاذا مـــراد الرابض المتحين

وفي قصيدة احساساتي يصور الموت في صورة أخرى. وقد نظمها قبل موته بشهور قلائل وكان قد نزل من السيارة عند باب السوق في بغداد يريد مقابلة أحد الكتبيين فسقط مغمى عليه فحملوه الى داره فقال .. قلت لعل يومي قد اقترب وهي آخر قصيدة قالها قبل موته :

قد أنى يا منيتي أن تعـــودي
بي الى حيث كنت قبل وجـــودي
ليس من هذا المـــوت لأنفس بد
فهو للناس من تراث الجـــدود
يا أماني فارقيني ويا نفس وداعـــا
ويا حشاشه جـــودي
لا تخافي على فالموت ســـهل
لا كما ينعتونه بشـــديد
لاتخافي ليس على الارض ولا في سمائها بجديد

ولعل الصبا يمر رخاء
فوق ملحودتى فينعش عودى
لا أنيس ولا نسيم ولا نور
يزيل الظلام عن ملحودى
يوم لا تبصر الربيع
ولا تصغى لانغام البلبل الغريد
يوم لا تطلع النجوم علينا
باسمات من السماء كخود
يوم لا يسفر الصباح لنا
من جانب السماء قائما كعمود
يوم أيدى الردى تجردنى
من كل طارف وتليد
سيقولون شاعر غاب فى اللحد
وكم غاب مثله فى اللحود
سبقتنى الى المقابر موتى
أنا فى الراحلين غير وحيد
بعد نومى على فراش وثير
عن قريب أنام فى أخدود
لا أنيس ولا نسيم ولا نور
يزيل الظلام من ملحودى
غير أنى ما أن سئمت حياتى
وهبوطى وهادها وصعودى

ما بلغنـــا من اللبـــانات يا نفسى
سوى النـــذر بعد جهد جهيد
يممى يا نفسى الســـماء فانى
لا أرى فى الثرى طريق الخـــلود
ان تلك الســـماء كالارض هذى
حومة تدمى للكفـــاح الشديد
لا يخيفنك اللقـــاء بحرب
هى بالنـــار تلتظى والحديد
أنت حاربت للتحرر أعـــواما
طوالا فحـــاربى من جديد
أنت فى الارض مـا نطأطأت حتى
تخضعى فى الســماء أو تستفيدى
انما أنت للتمـــرد لا للخسف
فالرسف فى ثقال القيـــود

وفى هذه القصيدة يبدو الزهاوى وهو على أبواب الموت فى عناده وشماسه وكبريائه .. مدلا بشعره وجهاده فى ســبيل التحرير . كما يرى أنه بالرغم من بوغ السبعين لم يزل يحب الحياة ويرى أنه لم يقض منها الا اللبانات اليسيرة بعد الجهد الجهيد . وانه سيحرم من أنوارها وضحاها وجمالها فى حسرة بالغة ..

ويتصل بالموت شعره فى الرثاء ويمتاز بروح حية وأسلوب طليق وفلسفة عميقة يتصل دائما بالموت والحياة

يرثي المتبني في الذكرى الالفية فيقول (١) وكأنه يذكر نفسه :

ما أنت يا أحمـد في دولة الادب
الا الزعيم والا شـاعر العرب
وما تنبأت في دين كما زعمـوا
بل في الفصاحة سباقا وفي الادب
فكان يوحي اليك الشعر عن شحط
وكنت في قـادة الاداب أولهم
وكان يوحي اليك الشعر عن كثب
وكنت أولهم في الجحفـل اللجب
وكنت في الشعر مثل الماء منطلقا
وكنت في الحرب مثل النار في الحطب
كم حكمة لك سارت في الورى مثلا
قد قلتها بلسان الشـاعر الذرب
كم دولة للقريض الناهض انقلبت
لـكن عرشـك فيهـا غير منقلب

وقال في تأبين الشاعر عبد المحسن الكاظمي (٢) وهو من جيله وواحد من أربعة شعراء العراق الجواهري والكاظمي والرصافي والزهاوي :

صدق النعي ومـات عبـد المحسن
يا شـعر أنبـه ويا نفس أحزني

١ ــ الرسالة ٧ يناير ١٩٣٥
٢ ــ الرسالة ١٠ يونيه ١٩٣٥

يا شـــعر ومحسن قد كنتما
عمرا رفيقى غـــربة وتوطن
قد عشـتما فى كل منزلة معـــا
كالفـــرق بين اللامعين وأحسن
أو زهرتين ولا أرانى داريـا
أشـــغفت بالنسرين أم بالسوسن
حتى احتوته يد المنـــايا بغتة
بمخالب معقـــوفة كالمحجن
لمن الزعامة فى القريض ومن لهـا
بعد الحفى الشـــاعر المتفنن
ملأت قصائده القـــلوب حماسة
من بعد ماشـــغلت جميع الألسن
شعر يكاد يســـيل منه لفظة
مثل النـــدى من رقة فيهزنى

عقيـــدة الزهاوى

كانت عقيدة الزهاوى هى بؤرة نقد خصومه ٠٠ والدعوى المنطلقة فى كل مكان ٠٠ كان الناس يقـــولون ولا زالوا : ان الزهاوى كافر وملحد وزنديق ولا يؤمن بالله ولا باليوم الاخر٠ ولا بالبعث والنشور٠ وهو اتهام يوجه الى كل شاعر مجدد٠ وكل مفكر جرىء وكل مصلح سبق زمنه ٠٠ أو أديب أراد أن يهز حياة قومه الجامدة ٠٠ وما من كاتب أو مفكر أو شاعر لمع اسمه وتالف الا وكان له من خصومه مثل هذا الاتهام ٠

فهل الزهاوى حقا ملحد ٠ وما هى عقيدته ٠٠ لندع شعره فى مختلف مراحل حياته يكشف لنا عن الحقيقة ٠

فى ديوانه الكلم المنظوم الذى أصدره عام ١٩٠٧ وهو أول دواوينه يقص القصـــة على لسان امرأة تحدثت معه فى هذا الشأن قالت :

أأنت الذى بالزعم يذكر اننـــا
اذا ما ردينـــا لم نعد مرة أخرى
فينكر بعد الموت عود حيـــاتنا
وتجحد فى أقوالك الحشر والنشرا
فلو لم تكن دار يجـازى بها الفتى
تساوى اذا من يفعل الخير والشرا

ويرد هو في نفس القصيدة فيقول :

ندمت على ما كنت فرطت قبل ذا
يسوء اعتقاد لى الى الكفر جرا
لقد قلت قولا باطلا بجهالة
حنانك اللهم يا خالقى غفرا
لقد تبت عما كنت معتقدا له
فان لم تتب ربى على فواحشرا
شهدت بأن الله ربى واحد
تنزه عن عيب يشين له قدرا
اذا غنى الشيطان عن منهج الهدى
وكان يمينى فانحرفت الى اليسرا

وفي هذا اعتراف صريح من الزهاوى بأنه انحرف في رأيه ثم عاد فأعتدل مرة أخرى · وفي عباراته معنى التوبة والرجوع الى الحق الذى اعتقده بعد أن عرفه · وما على الزهاوي من بأس في هذا ولا ضير :

ويقول في قصيدة : احساساتي

لست أدرى أللفناء سنمضى
بعد ما نموت أم للخلود
اننى في شك وان ملأوا سمعى
بوعد يروونه ووعيد
لا تثق بالجمهور يا عقل يوما
ان رأى الجمهور غير سديد ·

تأكل الارض كل حي فلا تبـــقى

على والــد ولا مولـــود

أمم كلهـــا تبيد فتأتى

أمم أخرى بعـــدها للبيود

سوف يقفو ركب الى الموت ركبـا

ثم لا أشـــدو خلفـه بنشيدى

وفي هذه القصيدة يعود الزهاوى الى الشك فى الحياة بعد الموت ولكنه لا يلبث أن يقول فى نهايتها :

كلنا مؤمن يســـبح للرحمن

فى ظل عرشه المـــدود

اننى ما ســـجدت يومـا لغير الله

فالله وحده معبـــودى

وفي هذه الصراحة قوة وصفاء ووضوح :

وهو فى أوضاع مختلفة من شعره يدافع عن نفسه هـــذا الاتهام (١)

ما حيـــاة قديمهـا غير باد

لك الا تطور فى الجمــاد

ولقد يهلك الذى يتـــوقى

وقد لا يعيش أهـــل الحياد

أى ذنب لى أن تبـــاعدت

الشـــقة بين اعتقادهم واعتقادى

١ـ قصيدة تطور فى الجماد ٠ الرسالة ١٥ فبراير ١٩٣٣

كلما خالف الجمـــاعة في الرأ
ى جرىء رموه بالالحـــاد

وفي قصيدته الضخمة : ثورة في الجحيم .. يعاود تصوير ايمانه فيقول :

كان ايماني في شبابي جم ما به نزره ولا تقصـير
غير أن الشكوك هبت تلاحيني فلم يستقر بي الشعور
ثم عاد الايمان يقوى الى أن سلمه الشيطان الرجيم الغرور
ثم آمنت ثم الحدث حتى قيل هـذا مذنب مغـرور

ثم دافعت عنه بعد يقين مثل ما يفعل الكمي الجسور
وتعمقت في العقائد قيل هذا عـلامة غرير

ثم اني في الوقت هـذا لخـوفي
لست أدرى مـاذا اعتقادي الاخير

وتعطى هذه الابيات صورة الزهـاوى وهو بين الايمـان والالحاد باحثا حتى وصل الى الاقتناع عن طريق العلم والبحث لا بالوراثة والتقليد وهو يقول في شأن عقيدة المقلد وعقيـدة البصير الباحث :

أمن اكتفى بخـرافة فهو مؤمن
ومن امترى فيها من الكفـار

ولدى النهاية جاهل في جنة
فيها النعيم وعالم في النار

ولم يدع الزهاوى خصومه ينطلقون في اتهامهم له فصرخ فيهم صرخة عارمة :

يا قوم مهلا . مسلم أنا مثلكم
الله ثم الله في تكفيرى

حكمة الزهاوى

قال نقاد الزهاوى أنه أشبه بالمعرى من ناحية وأشبه بالمتنبى من ناحية أخرى وأرادوا بذلك انه يماثل المعرى فى قصائده الجريئة وآرائه فى الحياة والموت وما بعد الموت وحربه على خرافات الدين وأوهام العامة .. وانه أشبه بالمتنبى فى اعتداده وكبريائه وفلسفته واعتزازه بشعره وكذلك حكمته المنثورة فى طوايا قصائده .

والحق أن الزهاوى كان فيلسوفا وانه كان يتعرض لقضايا الحياة فى قوة وجرأة حتى ليمكن أن يطلق على أدبه ذاك أدب القوة .

يقول :

ليس الحياة سوى نزاع دائم
يا للضعيف به من الجبار
يا شيب لستم للوغى فتأخروا
وبدار يا شبان ثم بدار
انضوا القديم وبالجديد توشحوا
حتى م تختالون فى الاطمار
وتحرروا من نير كل خرافة
خرقاء تلقى الزيغ فى الافكار

وتحرروا من قيد كل عقيـــدة
سوداء ما فيها هدى للســـارى

ويصور الحياة والموت في صورة رائعة :

لقـــد راعنى رزايا توالت
والـــرزايا إذا توالت تروع
ورأيت الايام تأكل من أعمـــارنا
فى الحيـــاة وهي تجوع
وكأن الارض التى هى وارت
كل هذى القبـــور قبر وسيع
وكأن الســـماء قبة دير
وكأن النجوم فيها شـــموع
كلما شاهدت المقـــابر حولى
أخذتنى مهـــابة وخشوع
ليس للقادمين منا بقـــاء
ليس للذاهبين منا رجـــوع

ومع هلال محرم يشدو داعيا أبناء العروبة الى المجد والحرية والكرامة :

ومن لى بعام لا يشـــابه غيره
أرى فيه اظفار البغاة تقـــلم
وأبخل أرض بالرجـــولة بقعه
يضـــام الفتى فيهـــا ولا يتبرم

أدير عيوني فى الوجـوه فلا أرى
سوى الذل مقـروءا ولا أتوسم
ليحزنني أن العنـادل آثرت
صموتا وان الزهـر لا يبتسم
بنى وطنى لا تسكتوا عن حقوقكم
أليس لكم منـكم فم يتـكلم
لكم ثروة فى الارض ألقا بها لكم
وأرباحها للغـرب نهب مقسم
لا فخر الا للذى هو ماجـد
ولا مجـد الا للذى يتقحم
وما الحـر الا من اذا ضيم لم يلن
وان قال حقـا فهو لا يتلعثم
وما بال أبناء العروبة أصـبحت
على الذل أشـتاتا تشب وتهرم
وما بال أبنـاء العروبة سلمت
وقد كان عهـدى أنها لا تسلم
لالام قومى الصـيد نفسى تألمت
لك الويل يانفسى التى تتـألم

وهو محب للحياة مهما علت به السن يدعـو الناس الى المتاع (١) بها :

---

١ ـ قصيدة خطرات ، الرسالة ، أكتوبر ١٩٣٥

يا نفسي يالتنخدعي بالزاهد المنقطع
دنياك هذي تحتوي على النعيم أجمع
تنعمي بخيرها قبل دنو المصرع
وبالحياة ما صفت تمتعي تمتعي
لكل باب تحسبين الخير خلفه اقرعي
وانتهزي الفرصة قبل فوتها واسرعي
بالبسمات تبلغين السؤال لا بالادمع
وهو اشتراكي يدعو الى المساواة

لايعرف المؤلم في الحياة الا المؤلم
ألف يعيش بائسا وواحد منعم

ثم يعاود هذا المعنى بصورة أقوى وأوضح :

ان من كدوا يزرعون البقاعا
اشبعوا غيرهم وباتوا جياعا
ربح المالكون الارض غصبا
ومضى كد الزارعين ضياعا
يقفر الدهر ألف بيت ليغني
واحدا من أفراده جماعا
لا ترى بين أوليهم ثريا
كانزا للاموال أو منّاعا
ومن العدل يكون نتاج الارض
بين المستثمرين مشاعا

ان بين الحق المحصحص والباطل
منذ الدهـــر القديم نزاعا

ولقد ذكر الزهاوى كثيرا انه تتلمذ لابى العلاء وهو يقول مخاطبا اياه فى قصيدة له من ديوان الاوشال :

وأنى أكبر شىء فيـــك يعجبنى
سخرية من تقاليد وعصـــيان
أنكروا فيك الحـــادا وزندقة
وعل ما أنكروه فيك بهتـــان
اننى تتلمذت فى بيتى عليك وان
أبلت عظامك أزمـان وأزمـــان
أصابنى فى زمانى ما أصـابك من
حيف فما رد هـذا الحيف انسان

وهكذا يصل الزهاوى الى أن يربط نفسه بالمعرى فى تشابه حياتهما وما لقياه من الجماهير

وقد عارض الزهاوى قصيدة ابن سينا عن الروح فقال :

طارت بعز للســـماء الا رفع
ورقاد كانت فيك ذات تخضـــع
قد كان مسكنها بجسمك ضـــيقا
واليوم تســـبح فى مـكان أوســع
الله أرســـلها اليك وبعـد أن
مكثت قليـــلا فيك قال لها ارجعى

وان كان لم يتم هذه القصـيدة وقال : حال دون اتمامها مانع .

خدعوها بقولهم حسـناء
شعرها الليـل والجبين ذكاء
غرها ذلك الثنـاء فلانت
والغوانى يغرهن الثنـاء

ومن شعره الحكمى قوله :

ما أكبر الاخـلاق فى نفسى امـرىء
ان خاشنته النـاس لم يخشوشن

وقوله :

ما قلت شـيئا بفمى
الا وعقـلى ملهمى
أنا ابن عقـلى وحده
تنبئى عـنى كلمى
به اهتديت فى شـبابى
مثلما فى هـرمى
ربما كانت أمـور
أنا عنـهن عمى

دموع الزهـــاوى

لدموع الزهاوى قصة طريفة .. فقد عرف بأنه صـاحب دمعة .. وكان هذا مصدرا من مصادر متاعبه . ولطالما ردد فى شعره قصة الدمع .. غير انه عاد فى آخر أيامه . فدعا الدمع الى أن يقر فى العيون .. ويرجع على الاعقاب :

يقول فى ديوان الكلم المنظوم :

الأياد مع انك ترجمـــانى
فبين للأحبة ما أعـــانى
اليهم فى فى فؤادى بعض شــكو
ى لسانك فيك افصح من لسـانى

ويقول :

ابك فان عبرة الباكين سلوى لهم
أليس ثغر الدم فى وجه الحزين يبسم

ويقول الاستاذ ناصر الحانى فى محاضراته عن الزهاوى :

« عرف ان دموعه طيعة ، وانه يبكى اذا ضجر وثار . ويبكى اذا ابتهج وسر . وعرف عنه بعض مناوئيه ومغيظيه هـذا .. فراحوا يثيرونه ويشيعون عنه ما يبعث الفرح اليـه حينا .. وما يغيظه ويبعث الثورة فى نفسه أحيـانا . وظل يعيش فى

عالم خاص به ـ لاسيما في شيخوخته ـ ويرى أن قومه لم ينصفوه ·· »

وهو في قصيدة : دمعتي يكاد يصور هذه المعاني كلها :

أنت اما أن تخففين مصـــابي
دمعتي فأرجعي على الاعقـــاب
أنت لا تدرئين عـــني دائي
أنت لا تصلحين منه خـــرابي
أنت لا تجدينى في شـــفائي
أنت لا تنقذينني من عـــذابي
أنت لا تدفعين وطأة شـــيبي
أنت لا ترجعين عهد شـــبابي
أنت لا تقـــدرين أن تهبيني
راحة أو تسكني أعصـــابي
انما أنت قطره ســـتبلين
اذا سلت بقعة من ثيـــابي
أو تضيعين بين لحيتي البيضـــاء
أو تنبضين فـــوق التراب
ارجعي فالحياة ليست تســـاوى
ان تخرى من حالق كالشـــهاب
لا تخـــري وان قضى ان تخـــرى
سبب قاهر من الاســـباب

ان نفسى لا ترضى ان تهـــونى
كشجونى وان ملأن أهـــابى
يا ابنـــة الهم ان غرفتك القلب
فلا تخرجى الى الابـــواب
أنا لم أسأل العيـــون بكاء
لتكونى على السؤال جـــوابى
واذا ما هبطت بالرغـــم منى
طال يادمعتى عليك عتـــابى
أنا ان بكيت أبكى بشـــعرى
ولقد أهديه الى الاحقـــاب
كل بيت منه اذا عصـــروه
دمعـــة ثرة على الاداب
بين شعرى وما يجيش بصـدرى
من شعور وشـــائج الانســاب
أنا عنه محـــدث وهو عنى
وكلانا فى القـــول غير محاب

ويقول فى رسائله ان آلامى المعنوية أكبر من آلامى المادية. فانى كلما رأيت تقدم الشعب بطيئا استولى على اليأس . وكلما انخدع بالباطل تمزق قلبى من الاسى .. وكلما خضع للظلم شرقت بدمى .

دعا الزهاوى الى الشعر المرسل وحاوله على أساس انهجزء من دعوته الى حرية التعبير والقصيد ٠ وقد نشر فى هلال يونيه ١٩٢٧ قصيدة أطلق عليها اسم « بعد ألف عام » وقال انها قصيدة من الشعر المرسل الذى استحدثته فى الشـــعر العربى مطلقا اياه من قيد القوافى ٠ ذلك القيد الثقيــل الذى تبرم به الشاعر وحببته الالفة الى الســمع وما أرى لالتزامه من ضرر غير انه من تراث الماضى الذى يقى دهرا يشل الشعر فى مجموعه ٠٠ فلا يمنحه حـرية لايراد القصص وبث الاراء والوصف كما ينبغى ٠ ولا يدله فى الموسيقى التى تجعل الشعر الا وهى الوزن ٠٠ وحسبك دليلا على أن البيت الواحد يتمثل به الكاتب فيلذه القارىء عارفا أنه شعر من غير أن يسأل عن موافقته لرديفه فى القافية ٠٠

ما أغنى أرجل غوانى الشعر عن خلاخيل القافية ٠٠ وأغنى السامع عن سماع وسوستها التى تشوش عليه موسيقى الوزن ومن نكد الشعر العربى أن قيد القافية فيه أثقل منه فى الشعر الغــــربى ٠٠ بطىء التطور بحسب الحاجات العصرية التى لا يشبعها ذلك القديم الضيق وانى لا أريد اليوم رفع القافية من كل أقسام الشعر فذلك عسير على الاذواق التى ألفتها منذ

عصور طويلة واحقاب بعيدة .. ولكن اى ياس فى أن يوجد نوع من الشعر المرسل كما يوجد المقيد . وان يكون هذا النوع خاصا بالقصص والوصف والجدل والحكم حيث ينبغي أن يسير على صوت موسيقى الوزن حرا طليقا فى مجال واسع لا يرسف فى قيوده مثقلا .

وقد نشرت لى المؤيد فى مصر قبل أكثر من عشرين سنة قصيدة بعنوان الشعر المرسل ونشرت لى جريدة في العراق قصيدة أخرى قبل سنتين تقريبا فقامت حول هذه قيامه المحافظين على القديم . وكان لى يومئذ انصار كما كان لى خاذلون . وقد رددت على نقد الناقدين يومئذ بسلسلة مقالات اثبت فيها انهم كانوا على باطل ..

والواقع أن الزهاوى حاول أن يكسب أنصارا للشعر المرسل ولكنه هو شخصيا رجع عنه بعد ذلك الى النظم والقافية بعد أن تبين انه لا يرضى الا القليل .

ولعل هذا النموذج الذى نورده من قصيدة «بعد الف عام» تبين مدى نجاح التجربة .

حكومتهم شبه اشتراكية فما تنعم بأفراد وتشقى جماهير
يعيشون أحرارا فليس مسيطرا عليهم سوى العقل
أحاطوا بأسرار الطبيعة خبرة
فلم يبق عنهم من نواميسها خافى
وقد عرفوا عفو الغريزة كل ما له نحن كنا بالروية نعرف

وإذا ما أرادوا السير فالجو واسع

وأما أرادوا المكث فالارض مهشه

يرى بعضهم بعضاً ويسمع صوته

وبينهما الارض القصية تفصل

ويقرأ كل منهم فكر غيره

قديرا فلا تخفى عليه السرائر

وقد كان الزهاوي في هذا يقلد ولز وجول فيرن وغيرهم من المتنبئين .

بين الزهاوى والرصافى

عاصر الزهاوى ثلاثة شعراء في العراق : الرصافي والكاظمي والجواهرى .. ولكنه ارتبط في ذهن الكثيرين بالرصافي. ولعل مرجع ذلك الى أنهما كانا كفرسى رهان فى ميدان واحد. وقد وصف كل منهما بالجرأة على المعتقدات .

والواقع أن الزهاوى ولد سنة ١٦٨٣ توفى عام ١٩٣٦ وعاش ٧٣ عاما والرصافى ولد عام ١٨٧٥ أى بعد الزهاوى باثنى عشر عاما وعاش حتى سنة ١٩٤٥ وبلغ من العمر سبعين سنة .

وقد قيل كثيرا أن هناك خلاف بينهما ولكن الزهاوى قال غير هذا فى بعض قصائده ان الرصافى بالنسبة له كهارون الى موسى وقدم نفسه كعادته

وانى بمعروف لأعتز انه
أخو ثقة والحر يعتز بالحر
كلانا يريد الحق فيما يقوله
وانى واياه الى غاية نجرى
فخذ بيدى اللهم فى كل دعوة
وهذا أخى معروف فأشدد به أزرى

كما أشار الزهاوى فى رسائله (يناير ١٩٤٧ ـ مجلة الكاتب المصرى) بقوله : أما النزاع بينى وبين الاستاذ الرصافى فليس اليوم كما يكبره المزجفون فكثيرا ما نتلاقى كصديقين ٠

ومعنى هذا ان هناك خلافا كان قائما فى فترة ما ٠ ولست أعرف وجهة نظر الرصافى فى هذا الخلاف كما لم يصل الى أن الرصافى رثى الزهاوى بعد موته والواقع أن هنـاك فارقا وخلافا شديدين بين منهج كل من الشـاعرين ومذهبهما فى الشعر والحياة ٠ ولعل الزيات حين وصف الزهاوى بأنه كان قريبا من المعرى وأن الرصافى كان قريبـا من أبى نواس كان يحكى الحقيقة ٠٠ فقد عرف أن الرصافى عاش حياة عـارية جريئة كلها متع وخمر وجرأة على التقاليد ٠٠ بينما لم يفعل ذلك الزهاوى الذى كان مريضا ٠٠ وكان حريصا على الاحتفاظ بمظهر الوقار والكبرياء ليترك فى نفوس الناس دائما صـورة الدعاة وأصحاب الرسالات ٠

ومما قاله الزيات أن الرصافى (١) تميز بالصراحة الجريئة والاستهتار البـالغ ٠ وانه هو نواس العـراق فى حين كان أستاذه الالوسى يريده أن يخلف معروفا الكرخى الصـوفى المعروف ٠ ولعل اضطراب حياة الرصافى يرجع الى انه لم يجد ما كان يطمع فيه من مكان فى عهد فيصل مما دعاه الى أن يعلن الخصومة على الملك ووزراءه

١و٢ ـ الرسالة ٢٦ مارس ١٩٤٥

ولكن هذا لا ينقص من قدره كشاعر . يضعه النقاد بين الاوتار الخمسة للشعر العربى الزهاوى والرصافى وشوقى وحافظ ومطران (١) وكان الدكتور طه حسين قد مضى بأمارة الشعر التقليدي للعراق بعد وفاة شوقى (١٩٣٢) وقد علق الزيات على هذا بأن الزهاوى يفضل أن يكون فى ساحة المجددين على أن يكون فى طليعة المجددين .

وقيل ان الفرق بين الزهاوى والرصافى : أن الزهاوى أديب عالم والرصافى فنان أديب .

الزهاوى فى رأى مؤرخيه

يروى الاستاذ الزيات أن الزهاوى كان يحضر فى آخر أيامه ندوة السيد صبحى الدفترى محافظ بغـــداد فى داره ضحى الجمعة من كل أســـــبوع يحضرها الوزراء والزعماء والادباء والقادة ٠٠ فيكون لـكل طائفة منهم حلقة وحديث ٠٠ ولـكن الزهاوى كان اذا تكلم أصغت اليه الدار وتحلقت عليه النـدوة لان جميلا كان آية الله فى فكاهة الطبع وظروف المحـــاضرة وحلاوة الدعابة ورقة العبث ٠ وكان له فى القاء النادرة لهجة واشارة وهيئة لايبرح سامعها مستطار اللب نشوان المشـاعر من غرابة ما يرى وطرافة ما يسمع ٠

ولعل أبلغ مظاهر حياته هو ذلك القلق والتشاؤم والتململ ولا يشعر بالطمأنينة ينطلق يشكو دائما كل من يلقـــاه عن جمود الامة واغفال الدولة وكيد الخصوم والحاح المرضى ٠٠ وكانت الحيوية تقبض من كلماته ٠٠ والعزيمة تضـــطرم فى نظراته ٠ وهو كتلة من الاعصاب القوية المشدودة (١)

---

١ ـ وحى الرسالة ٢ الصادر عام ١٩٤٤

١ ـ الزيات ـ الرسالة ١٩٤٧

وهو بين الشكوى والزهو والطموح والقلق والتمرد يعيش حياته

يقول الزيات : كان الزهاوي يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجله فتتردد أصداؤها الموقظه فى ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب · وأدب الزهاوي وأمثاله هو الذى أوصل القلوب العربية فى مجاهل القرون القديمة بخيوط الهية غير منظورة ولولاها لما تهيأ العراق هذه الزروة ·

وانه ساعد على انهاض العرب بوثوب فكره ·· وعلى احياء الادب بوميض روحه ·

وقد قال بعض مؤرخيه انه : راوية لا يبارى ·· فكان صدره يعى من الاخبار والنكات والحوادث ما تضيق دونه المجلدات وكان له فى الرواية أسلوب خاص يأخذ بمجامع سامعيه ·· وانه كان فى أخريات أيامه يتردد على قهوة معروفة فى بغداد فيلتف حوله تلاميذه ومريدوه ويستمعون الى رواياته الشائقة وأحاديثه الممتعة ونوادره المضحكة ولا يقاطعونه ولا يجرءون على معارضته ·

وقد عنى بعض المستشرقين والكتاب الاجانب بآثاره وكتب أمين مكتبة الفاتيكان الكبرى : ان ما يحتوى عليه ديوان الاوشال هو أروع ما قرأناه فى الشعر العربى العصرى ·وكتب المستشرق الدكتور ودمر الالمانى ترجمة حياته · وترجم قصيدة ثورة فى الجحيم وخمسين قصيدة من اللباب و٥٣ رباعية الى الالمانية وكتبت عنه بعض صحف برلين مقالات وأبحاث ·

وجملة قول نقاده ومؤرخيه : أنه حمـــل لواء التجديد فى الشعر العربى ودعا الى الاخذ بكل جديد من الاراء والافكار . وتحمل فى سبيل ذلك كل أذى فقد كانت بيئة العراق جمود وظلام وقد غمرتها الامية وطغى عليها الجهل . (١) وقد ألف الناس الخضوع لجبروت الحكام والخضوع لبالى العادات . وما أضفاه المشعوذون عليها من أثواب التقديس والتعظيم .. وكان أى واحد يخرج على بعض التقاليد يتهم بالزندقة والكفر أو يتحدث عن شىء مما ابتكره الغرب حتى يرمى بالبـدعة والمروق فى الدين .

وقد نقد الاستاذ سليم طه رباعياته .. وقال انها ركيكة المعنى مهلهلة الاسلوب تعوزها الصناعة الفنية وتنقصها دقة التعبير الى جانب السبك فى النظم وحسن اختيار الكلمات .

ومن جماع ما يقال أن القلق كان أبرز معالم شخصيته .. وان ارتفاع السن والحياة الطويلة أعطته شيئا من القداسه . وان عواطفه وآرائه تبلورت بعد سن الاربعين . وانه لم ينظم شعرا فى الثورة العراقية وان والدته هى التى أورثته الصلابة ولعناد . ونه كان يحب المدح والاطراء ويضيق بالنقد ذرعا.. وانه تأثر بأحداث العراق والبلاد العربية وانه عاش حيـــاته شاكيا ضجرا قلقا . وكان التشاؤم والتقطيب والضـــيق والشكوى من أبرز مظاهر حياته .. وقيل ان علله وأمراضه التى لازمته طوال حياته لها أثرها فى اتجاهاته وكانت مصدر

١ ـ من مقال فى مجلة يونيه ١٩٤٩

قلقه وجزعه واكتئابه وقالوا ان فيه تناقض واضطراب وعاطفته تغلب عقله أحيانا • ولا يستطيع أن يطوى صـدره على الاوهام الخاصـة •• وكان يحس بأنه دون قدره وان لم يعط ماكان خليقا به •

وقد سبق الزهاوى جيله وتأثر بالتيارات الفكرية وعاش في مرحلة انتقال واضطراب بين الدين والوطنية وبين العثمانية والحرية وبين الاستعمار والاستقلال وبين الترك والعرب •• وأبرز ما فيه ثباته على ما دعا اليه • وقد عرف « بليلى » فقـد كانت (١) حلمه الذى صبا اليه وأمانيه التى حط عندها رحاله فهى فى الحقيقة وطنه العراق وهى فتاة أحبها أيام كان فى الاستانة •

وقد أطلق روفائيل بطى على الزهاوى اسم «فيلسوف بغداد فى القرن العشرين » وانه لم يحس فى حياته بالتقدير من وطنه ولا من الادباء •

وقال نقاده : ان شدة حنقه على المجتمع يرجع الى علة لازمته طوال حياته •والمرء شديد الانفعال فى مثل هذه الاحـوال اذ يرى نفسه رازحا تحت ثقل الآلام حـالة ان غيره ممن ليس أجدر منه بنعم الحياة يتمتع بمـا لذ وطاب ويسير فى الارض مرحا وعليه نجد شعره ضربا من الفلسفةالاجتماعيةوقد أدركته علته فى النخاع الشوكى وهو فى منتصف العقد الثالث من عمره

١ ـ ناصر الحانى فى محاضراته •

فتبعتها علل أخرى لم يكن الشلل الا بعضها · لهذا كان يسير دائما راكبا وبرفقته خادمه الامين ·· فاذا ترجل توكأ عليه حتى يصل الى مجلسه ·

وكان الزهاوى يميل الى البساطة فى كل شىء ويتجنب كل كل ما يشف عن العظمة والغطرسة وكان بيته رمزا على بساطة عيشه · وكانت حديقة منزله على صغر مساحتها دليلا على حسن ذوقه وشدة ميله الى الطبيعة ·

وكان الزهاوى يبسط آراءه بكل صراحة ولا يعبأ بانتقاد يوجه اليه وكان شديد الانفعال ينتقل من الغضب الى الفرح فى طرفة عين · ويقول ان الحياة أقصر من أن يضيعها المرء فيما يسوء ·

وكان الزهاوى شديد الولع بمشاهدة السينما ويحب مصر وأدبها وفنها وتمثيلها وغنائها ·

ويقول اسماعيل أدهم فى دراسة قصيرة له عن الزهاوى انه تأثر بشبلى شميل فبعد أن كان يؤمن بالدين أثارت هذه الفصول فى نفسه روح الجرأة على المقدسات وانه تأثر بالوهابية تأثيرا عكسيا فرد على دعاتها فى كتاب بعنوان : الفجر الصادق فى الرد على منكرى الكرامات والخوارق ·

وان رأيه فى المرأة هو رأى أفلاطون الذى يرى ان المرأة

وان كانت أقل فى الاستعداد الطبيعى الا انهـا تقترب من استعداد الرجل ٠

وقال اسماعيل أدهم ان أبرز معالم شعر الزهاوى اتجاهه العقلى في الشعر بعيدا عن الخيال والتأمل الفلسفى وانه حمل الشعر رسالة العلم ٠ وقد جمع بين العقلية العلمية مع القدرة على النظم ٠ وكان فى احساسه الشعور بسبق الزمن ٠

الادب العراقي في عصره

كان العراق في العصر السابق لاعلان الدستور العثماني .. يعيش في جو مظلم خانق من دسائس السلطان عبد الحميد. لم يكن هناك من يجرؤ على كلمات الحرية والاستقلال وفي خلال هذا العهد هاجر جميع أحرار الفكر الى مصر وتركوا البلاد التي تحكمها تركيا العثمانية .. واكتفى الزهاوي بأن ينظم نفثات قلبه ويرسل بها الى المؤيد والصحف المصرية مهاجما عهد عبدالحميد ومطالبا بالحرية والسفور . فلما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ قوبل ذلك في العراق بالفرح الشديد والتهليل أملا في الفرص التي سيتيحها الدستور للناس في حرية القول والرأي والنشر . وكان الزهاوي في مقدمة الذين اهتزوا لهذا الحدث الكبير .

وبدأ الادب العراقي يدخل في دور جديد حيث انبعثت منه حركة أدبية ضخمة . كان قوامها مدرسة الالوسي في بغداد وعميدها محمود شكري الالوسي . ومفتدى الشيخ أمين غالي في البصرة ومكتبه دير الادباء الكرمليين ببغداد .

كما حافظت النجف على استقلالها الادبي وتراثها الروحي فما زالت دار علم ومدرسة للثقافة فيها أسر قديمة توارثت

طلب العلم والادب خلفا عن سلف وأساتذة ممتازون فى المنقول والمعقول ولها مكتبات غنية بما ينشده الباحث والاديب (١)

وقد أقامت الطبقات الادبية التى ظهرت فى هـــذا العصر أدبها على أنقاض أدب النجف الطبطبائى والفحام والنحـــوى والاعيسم . ومن شعراء الحلة جمهور الحلى ومحسن الخضرى وسعيد الحبوبى .

وقل فى هذا العصر المدح فى الشعر وكثر الوصف . واتجه الشعراء الى وحدة الموضوع فى قصـــائدهم بدلا من تعـــدد المواضيع . وشاع الشعر السياسى والاجتماعى .

ولم تنس العراق أدبها التقليدى الرائع : الادب العـــلوى الحسينى الذى يحمل دعوة الكفاح والجهاد .. ويرسم صورة البطولة والدفاع عن النفس والعقيدة وذكر امجاد الاســـلام والعراق ولعروبة وقد كان للنهضة الادبية الحديثة فى العراق أثره الواضح فى القصـــائد والملامح الجديدة التى تحدثت عن التضحية والبطولة .

ولم يلبث العراق بعد قليل ان ثار ثورة عارمة مجيـــدة تحدث عنها القاصى والدانى ســـنة ١٩٢٠ كانت بداية عصر التحرر والوطنية .. انتهت معها معالم الاســـتبداد العثمانى وظهرت القومية العربية جهيرة حية واضحة . وبدأت مرحلة

---

١ محمد رضا الشبيبى : بحث فى المجمع اللغوى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨

جديدة من مراحل الكفاح لمقاومة الاحتلال البريطانى وارساء قواعد حياة وطنية جديدة قوامها الدستور والنيابة والعهد الجديد الذى كان على رأسه فيصل ومن بعده غازى وفى خلال هذا التاريخ الطويل كان الزهاوى والرصافى والجواهرى والكاظمى أبرز شعراء الفترة ٠

وقد كانت مظاهر الادب العراقى كما صوره الاستاذ الشبيبى جزالة عربية فى الالفاظ ومحاكاة للقدماء رجمود على الفنون الشعرية المألوفة حتى جاء الزهاوى والرصافى فجددا الشعر ودفعاه دفعة قوية الى الامام حيث حرراه من بعض قيوده فأتجه الادب العراقى الى الواقعية وكان هذا تطورا طبيعيا حيث زالت نظم مألوفة فى الحكم وحلت بدلا منها أخرى استتبع تغيرا فى أساليب الفكر والنظم والكتابة ٠

وقد كان شعر الزهاوى والرصافى والكاظمى على الاختلاف البعيد فى اتجاهاتهم وأساليبهم ترجمانا لحياة العراق وما يجيش فى نفوس أهله وما وقع فيه من أفراح ومآسى ٠

ومن ناحية اللفظ يتجلى فى الشعر العراقى رصانة فى مبناه وصفاء ديباجة وبيان مشرق ٠٠ ولعل شعرا فى العالم العربى لم تقم فيه دعوة قوية الى التجديد والتطور والتحامل على القديم مثلما حدث للشعر العراقى ٠

يقول الدكتور زكى مبارك أن الادب العراقى الحديث انتفع بثلاثة ينابيع : أولهما الادب الفارسى ٠٠ والادب التركى والادب المصرى هذا بالاضافة الى الادب العربى القديم ٠

وقد نظم الزهاوى الشعر بالفارسية يوم ذهب الى ايران للاشتراك فى احياء ذكرى الفردوس ٠

وقد عرف الشعر العراقى الشاعر الفيلسوف فى الزهاوى والشاعر الاديب فى الرصافى وفى الشاعر العربى التقليدى فى الكاظمى وفى شعر الموشحات فى الحبوبى ٠

ويتميز الادب العربى بالحديث عن الامة العربية ويرسم صورا كثيرة من الشام ومصر ٠

فكثير من أدباء العراق عاشوا فى مصر ٠ والاخوانيات من أبرز مظاهر الادب العراقى فهم يتراسلون بالرسائل والقصائد

وقال زكى مبارك أن شعراء العصر فريقان ٠٠ فريق يترسم خطى شعراء الجيل فى الماضى القريب ويجرى على سننهم المعروف فى المذاهب والاساليب مع شيء من التجديد : أحمد الصافى والحبوبى واليعقوبى والجواهرى والمقلد والخطيب والجعفرى وشعراء الرابطة العلمية الادبية فى النجف والفريق الاخر من شعراء الشباب الذى يميل الى مجاراة الغربيين ويحاول أن يتعاطى النظم على طريقتهم المعروفة وعددهم قليل ٠

وللادب العراقى الحديث فى مراحله فترات من أظهرها جنوحه الى التشاؤم والشكوى ٠ ووصف مظاهر البؤس والحرمان فى كثير من الاحيان ومن مميزاته نزوع ظاهر الى العنف فى مقاضاة الطبقة الحاكمة والدفاع عن حقوق الطبقة المحكومة ٠

وفى ميدان النثر طائفة من الباحثين والعلماء المنقطعين

للدراسات الفكرية يؤلفون ويدرسون وينشرون ولهم مؤلفات وتصانيف أبحاث منهم بهجت الاثرى ومصطفى جواد وعباس غزاوى وجواد على وأحمد سوسه وكوركيس عواد

وقامت الصحافة العراقية بدور ضخم فى سبيل الحركه الوطنية العراقية وكان لكتابها جهاد ملحوظ ويقول زكى مبارك أن المقالة القاسية فى جريدة عراقيــة ٠٠ فهى تزلزل احساس الجمهور أعنف الزلزال ٠ وقد أغلقت جريدة عراقية لانها كتبت مقالا عنوانه الفرات الهائج لانها تناست الفرق بين الهياج والطغيان ٠٠ فالهياج يضاف الى السكان أما الطغيان فيضاف الى الماء ٠

وهكذا يبدو الزهاوى بعيد الاثر فى أدب العراق ٠ اشترك فيه أكثر من خمسين عاما فى ثلاث عهود ٠٠ قبل الدستور وبعده وفى عهد الاستقلال والوطنية ٠ ونافح عن العراق والعرب والحرية الفكرية وطالب بتحرر المرأة ٠ وهز قوائم المجتمع العربى بدعوته الحرة وجرأته الخالصة واندفاعاته المتحررة فى تجديد نظم الشعر وتوجيهه من التقليد والعنــاية باللفظ ٠٠ وموضوعات الشعر القديمة الى الاقتحام فى ميدان السياسة والاجتماع والاختراعات الحديثة وحمل لواء التجديد ٠

وقد واجه المحافظون الزهاوى بالنقد وقاوموا دعوته وأسلوبه ولكن الزمن تغير وأصبح الزهاوى مظهرا واضحا من مظاهر الادب العراقى وقمة من قممه ومفخرة من مفاخره ٠ فقد كتب للادب العراقى صفحة مشرقة ومثل فى الادب العربى المعاصر

زاوية حية .

وحق ما قال الزهاوى أنه سيأتى اليـــوم الذى يدرك فيه المؤرخون مدى عظمة الدور الذى قام به وفى العراق اليـــوم تلاميذ الزهاوى وشباب العراق الذين غنى لهم الزهـــاوى سنوات وسنوات يسيرون على نهجه ويؤمنون به :

واليوم وقد مضى على موت الزهاوى بضعة وعشرين ســنة فقد بطلت الخصومة وزال الخلاف وآمن العراق بأن الزهاوى كان علما من أعلام الحرية فى تاريخه وانه دفع العـــراق الى الامام بقوة .. وأن هناته هى هنات البشر التى لا تتخلف مع الطبائع الانسانية لاسيما بالنســـبة للزمن الذى عاش فيـه وما كان فيه من ظلام واستبداد . وبالنسبة لحيـاته الطويلة المديدة ..

واليوم نرى الزهاوى وهو يمثل ركنا قويا من أركان الادب العربى المعاصر وجانبا هاما من جوانبه بالاضافة الى زمـلائه وأترابه شـــوقى وحافظ ومطران والرصافى والـكاظمى

واليوم حين أتم هذا البحث أذكر انى أعـــددت بحثا عن الزهاوى سنة ١٩٣٩ وأنا فى مطلع الحياة الادبية وقد قلت فى مقدمة هذا البحث : ما عشقت فى حياتى قدر رغبتى فى الكتابة عن هذا الرجل الشاعر الذى يغلب ســـحر كلمـة على روحى فيردنى عن الحياة الى أجواء تسمو وتسمو حتى تبلغ عنـان السماء .

وفى سنة ١٩٥٤ كتب عدد من الدراســـات عن الأدباء

المعاصرين (١) من بينها دراسة عن الزهاوى أنقل منهـا ما قد يكون مكملا لهذه الدراسة من جوانب حياته

ظل الزهاوى سابقا لعصره متهما بين أهل جيـــله وبلـده بالزندقة والجنون والالحاد ٠ وقد منحه العمر الطويل وتقلب الزمن حيث عاش الى سن السبعين مسحة من القداسة الرائعة خاصة بعد أن تخطت العراق مرحلة الانتقال ٠ وقد اضطر فى ابان محنته الى بيع معظم كتبه ولعل دفاعه عن حرية المـــرأة متصل الى حد كبير بأثر المرأة فى حياته وفنه وقد أثرت عنه فى ابان اقامته فى استانبول مغامرات وضيئة حيث أطلق لهواه العنان بعد أن فارق بيئة العراق ٠ ولكنه على ما طبع عليه من قلق لم يعرف الحب المديد أو يألف العشق الطـــويل المدى ٠ ويبدو أن الزهاوى فى الحب أشبه بشـــوقى فهو على طبيعته المتكبرة لا يصل الى أعماق الحب ولا يسبر غوره وهو ليس من من الروحيين الغزليين وأقرب الى الواقعية الادمية ولا تجـد عنده تلك الحرارة الدافقة فى العاطفة

ولعله وجد فى مصر أيضا سبيلا الى عاطفة أو حب ٠ وهو فى كل أحواله عن المرأة والدعوة الى تحريرها ليس الا داعية بالتعلم ٠٠ اذ أنه لم يستجب لذلك فى حياته الخاصة ٠ فقـد كان الزهاوى زوجا وكان زوجته متحجبة ٠ وقد وصفت هـذه الحياة بأنها كانت هادئة مرضية لنفسه ٠ وقد تزوج الزهاوى

---

١ ـ كتاب أضواء على حياة الادباء المعاصرين ٠

فى سن مبكرة · وأمكن أن تهيىء له زوجه أســـباب الراحة النفسية على ما به من شذوذ ·· اذ كانت خير معز لى فى المحن الفكرية والسياسية التى تعرضت لها ·· وفى خلال ســنوات مرضه بأعصابه فقد كانت تعنى به عناية الأم بطفلهـــا وتهتم بهندامه وتنظيم مكتبته وقد سافرت معه ابان ســفره الى مصر وسوريا · ومن أبرز معالم حياة الزهاوى الخاصة انه لم يرزق أولادا ولعل ذلك كان مصدرا من مصادر اضطرابه النفسى ·

وقد وصفه بعض النقاد بانه ناظم وليس بشاعر وقال عنه الناقد يوسف جورج : انه ليس شاعرا · اذ أن الشاعر يعتمد على العاطفة والخيال قبل العقل · والزهاوى كان لا يبـــالى العواطف والخيال أبدا ·

وبعد فالزهاوى قوة أدبية كبيرة فى تاريخ العراق الذى أحبه وفى تاريخ الادب العربى المعاصر ·· وهو علم من أعلام الفكر والشعر والفلسفة العربية الحديثة يمثل جانبا واضـــحا هو الحرية الفكرية والتجديد والدعوة الى الاصلاح الاجتماعى ·· رحمه الله ·

أنور الجندى

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
٣٠ شارع منصور ـ القاهرة
ص٠ب ٢٣٩٨